رئيف خوري

الحبُّ أقوى



رئيف خوري الأديب في سويدائه، والشاعر الذي يحرص على صياغة قصائده وصقلها كما كانوا يحرصون على تجويد السيوف والألطاف، يعرف أيضاً كيف يترسل في نثره الكتابي والخطابي ترسلاً لا أثر للصنعة فيه، بل لا ضابط له غير المنطق الخفي حيناً، الظاهر أحياناً...

رئيف خوري، حتى في كتابته التاريخ، لا يقف على أطلال الماضي مقدار ما يقف على تصاميم المستقبل.

عمر فاخوري

في رئيف الكاتب القصصي خصلة حلوة هي تفتيشه دائماً عن الطريف الظريف وتهافته عليه...

الحوار واللون المحلي هما دائماً أقوى عناصر القصة... ولكن المؤلف أعاضنا عنهما بشيء آخر هو حلاوة تعابيره الخاصة، ووصفه الطريف، وسرعة جري قصته، وحسن سياقها واتجاهها المستقيم نحو الهدف... رئيف يُمسك الخيط ولا يُفلته، وهذه أولى صفات الروائي. إنه لا يحوّل النظر عن أهدافه، بل يسيّر إليها أبطالَه فلا يتعثرون بشيء.

مارون عبود

إنسان كبير يحتل في أدبنا العربي الحديث محل القمة، أعني به رئيف خوري.

الشيخ عبد الله العلايلي

صدر للمؤلف

امرؤ القيس: نقد وتحليل، دار صادر، بيروت ١٩٣٤.
ثورة بيدبا، مسرحية شعرية، مكتبة روضة الفنون، بيروت ١٩٣٤.
حبة الرمان، مجموعة قصصية، المكتبة الأهلية، بيروت ١٩٣٥.
حقوق الإنسان، مطبعة ابن زيدون، دمشق ١٩٣٨.
وهل يخفى القمر، دار المكشوف، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٣٩، الطبعة الثانية ١٩٤٩.
النقد والدراسة الأدبية، دار المكشوف، بيروت ١٩٣٩.
معالم الوعي القومي، دار المكشوف، بيروت ١٩٤١.
الفكر العربي الحديث، دار المكشوف، بيروت ١٩٤٣، الطبعة الثالثة، دار الساقي، بيروت ٢٠١٣.
صحون ملوّنة، تمثيليات نثرية قصيرة، دار المكشوف، بيروت ١٩٤٧.
الثورة الروسية: قصّة مولد حضارة جديدة، دار القارئ العربي، بيروت ١٩٤٨.
ديك الجنّ الحمصي والحب المفترس، دار المكشوف، بيروت ١٩٤٨.
الحب أقوى: رواية تاريخية من العصر الأموي، دار المكشوف، بيروت ١٩٥٠، الطبعة الثانية، دار الساقي، بيروت ٢٠١٣.
أمين الريحاني وحقيقة الديموقراطية الأميركية، دار القارئ العربي، بيروت ١٩٤٨.
مجوسي في الجنّة، دار المكشوف، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٣٨، الطبعة الثانية ١٩٤٩.
التعريف في الأدب العربي، جزءان، لجنة التأليف المدرسي، بيروت ١٩٥٠.
الطغاة، دار المكشوف، بيروت ١٩٤٩.
نصوص التعريف في الأدب العربي، لجنة التأليف المدرسي، بيروت ١٩٥٧.
جهاد فلسطين، دمشق ١٩٣٦.
مع العرب في التاريخ والأسطورة، دار المكشوف، بيروت ١٩٤٢، الطبعة الثالثة، دار الساقي، بيروت ٢٠١٣.
الأدب المسؤول، دار الآداب، بيروت ١٩٦٨.

خطوط العناوين: حمدي طبّارة – تصميم الغلاف: سحر مغنية

رئيف خوري

الحبُّ أقوى

رِوايَة تارِيخيَّة مِنَ العَصر الأمَوِي



الطبعة الأولى، دار المكشوف 1950
الطبعة الثانية، دار الساقي 2013

ISBN 978-1-85516-828-2

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342 بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114—2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+

email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

مقدمة

ماذا تراني أستطيع، أيها القارئ العزيز، أن أقول لك في مقدّمتي سوى أنّ هذه القصة تاريخية تدور في فلكٍ من العصر الأموي على عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان. لكنّي ربما قصدت فيها إلى أكثر من محض تصويرٍ تاريخي قديم، وإلى أبعد من مجرّد وصفٍ لحوادث جلّها اختراع.

يبقى عليك، أيها القارئ العزيز، بعد أن تطالع هذه القصة، أن تقول لي أنت شيئاً فيها، أو تقوله لنفسك.

أمّا هذا الشخص الثالث - بيني وبينك - أعني الشيخ الفاضل داود الأنطاكي صاحب كتاب **تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق** - وهو الذي بُنيت هذه القصة على أساس من صنعه - فاذَنْ لي أن أسوق إليه بمفردي كلمة شكر. ثم تستطيع أنت أن تشاركني، أو لا تشاركني، في هذا الشكر بعد أن تفرغ من قراءة هذه القصة التي ألهمنيها في ساعةٍ تحمدها أو تذمّها.

رئيف خوري

الفصل الأول

منذ أن تجاوزت سعاد طور الحداثة فأصبحت صبيّةً في الثاني عشر ربيعاً، تسحب جلبابها الخشن الطويل بين خيام بني عذرة في هذا الحيِّ الهادئ المنزوي الذي تمضي فيه الحياة على وتيرة واحدة كطنين الذباب المدوِّم فوق الماء الراكد، لم يرَ طلعتها بشرٌ إلاّ بوغت بظهور هذا اللون المشرق في هذه اللوحة المكمّدة، فوقف، ولو هُنيهةً، يعطي العين حقّها ممّا رأت من سحر جمالٍ أُفرغ في هذا القالب البديع من لحم فتيٍّ ودم حار... قوامٌ ممتلئٌ، به قِصَرٌ يحبّبه إلى النفس كالدمية الصَغيرة، جلَس فيه على الصدر كوزان متكبّران، وعينان نجلاوان لامعتان ذكيتان، كُحِّلتا في الجفنين والأهداب، بقلمٍ دقيقٍ غُمِّس في ذوب ليل البادية، ووجهٌ رقيقٌ وُشِم تحت لُمى الشفتَين بنقاطٍ زمرّديةٍ كرؤوس الأعشاب النابتة خضراء، وأُشرب ما شاء من سُمرةِ الشمس الصحراوية لم يستره عنها لثامٌ ولا هودج... زهرةٌ رخصةٌ ناضرةٌ غريبةٌ في هذا القفر الذي قلّ أن أنبت الزهور. فلا بدّ من يوم قريبٍ يحوم فيه عليها فتيان الحي من بني عذرة يتسابقون إلى رضاها، كلٌّ يطمح في استهوائها ولو بذل نور العين أو حَبّة القلب. وما أعظم ما يتولّه

العذريون بالجمال، وما أشدّ ما يقيمون على العاطفة، وما أحرّ ما يقولون الشعر بَليلاً بالدمع. قنعت بذلك هذه القبيلة في فقرها ومجاهل باديتها، فكان هو عنوان ذكرها على التاريخ، لا عنوان لها سواه. إذا قيل بنو عذرة قيل الحبّ النقّي الوفّي الخالد والشعر الهيمان الرقيق الواجد، وإلاّ لما قيل بنو عذرة.

ولم يكن أحد أعرف من أم سعاد بهذا الجمال الذي أسبغه على ابنتها خالقٌ مبدع. عطيّة الله حقاً هذا الجمال! وإلاّ فمن أين؟ وأم سعاد قطعت شوطاً من العمر تستطيع أن تعترف معه - لنفسها طبعاً! - بأنها لم تجاور الحُسن والصباحة في يوم. وأبو سعاد، حتى في شبابه، قبل أن تعمش عيناه، كان ضاوياً قميئاً، بينه وبين الوسامة مسافة أعوام.

وكانت أم سعاد، على أنها عذرية، أبعدَ شيءٍ عن تلك الطبيعة العاطفية، الشعرية، السخيّة في التضحية. كانت لا تنقطع ساعةً عن التفكير في أيِّ الأزواج ترضى لفتاتها. تريده غنياً سريّاً فتيّاً ناضر الطلعة، وتقدّر المهر بمئات الإبل السمان النجيبة. ثم لا تفتأ تُذكّر الأب بهذا الكنز الذي يملكه في فتاته، وتوصيه أن يحسن الانتفاع به على حرمان الدهر، كأنها تخشى أن يفرّط به في غفلةٍ من غفلاته.

أما الأب - وليس هو أقرب من امرأته إلى النفس العذرية، وإن يكن أقلّ منها تحجّر قلب - فكان يقول لها: اطمئنّي، لا عليك... فهو الآخر يدرك جمال ابنته حقّ إدراكٍ، ويحرص على اختيار صهرٍ عظيم الجاه، فارع الشباب.

ولكنّ سعاد في غفلةٍ عن ذلك كلّه.

إذا أخذت الآفاق تعكس بهاء الفجر المشارِف، وبدأت النجوم تشحب وتنحلّ، وسرت نسمات السَّحَر، ودبّ دبيب اليقظة في نواحي الحيّ، نهضت فخرجت من مضرب الشعر تعين أمها وأباها على احتلاب الشياه القليلات. ثم تزوّدت زاد النهار وخرجت بالقطيع الصغير الهزيل إلى مرعىً قريب، فلم تعد إلاّ قبيل هبوط الليل لتعين أمها وأباها شأنها في مطلع الصباح. ثمّ تتناول العشاء خفيفاً من تمرٍ ولبن. فإذا انعقدت حلقة سمر في أخبار الحبّ أو الفروسية أو الكرم أو أحداث الدولة، وإذا نُقرت أوتار رباب أو ارتفع صوت منشد يواجه وحشة الليل بإنشاده الكئيب الرتيب، سهرت تستمع حتى يُرنِّق النعاس في جفنيها، فتسكن عندئذٍ إلى رقادٍ عميقٍ لا أرق فيه ولا أحلام – أهنأ ما يكون الرقاد.

تلك حياتها: انسجامٌ رتيبٌ من يوم إلى يوم. كلّ ما يكدّرها كلمةٌ جافّة تقولها لها أمها إذا كبّت وعاء الحلَيب أو تقاعست أن تخفّ إلى البئر فتملأ القربة ماءً. أما عيون الفتيان التي تترصّدها فتختلس إليها النظر اختلاساً، أو تحدّق فيها تحديقاً يلتمع بوميضٍ، فما كانت سعاد لتفهم عنها أو تضطرّب لها.

غير أنها حالٌ تغيّرت ذات مساء...

عادت سعاد بقطيعها الصغير الهزيل إلى الحيّ ومعها ابن عمها نصر وغنيماتٍ له ليس يصحّ في أقصى درجات التساهل أن تسمّى قطيعاً. وسعادُ تكاد كلّ صباح تخرج من الحي مع ابن عمها أو تلقاه في رابعة النهار وهو يرعى غنيماته أو يرعى بأجرٍ ماشيةَ سَريٍّ من سُراةِ الحيّ. وكان خروجها معه أو لقاؤها إيّاه أمراً معتاداً كالدرب

التي ألفت أن تسير عليها كلّ يوم، ذهاب إياب. و لم تكن أمها لتنكر عليها من الأمر شيئاً.

لكنّ الأم انفجرت عليها بغتةً هذا المساء وصاحت بها:

– لئن رأيتك بعد اليوم تخرجين أو تعودين مع هذا الصعلوك المنتوف فلأعاقبنّك أقسى عقاب... وهزّت في وجهها سبّابةً معقدة عوجاء يبس جلدها عليها وتشقّق.

بُهتت سعاد. لم تستطع أن تفهم لما بدرتها به أمها سبباً. فنصرٌ هو ابن عمها. وهو إلى ذلك موضع أخيها حين عدمت الأخ، ورفيق طفولتها، دَرَجا معاً في الحي حتى بلغا هذا المبلغ من الصِّبا. ونصر كثير المعونة لها في لمّ شتات القطيع إذا تفرّق، وفي سوقه إلى الماء إذا عطش، وفي توجيهه إلى أنضر بقاع المرعى عشباً. ونصر يمنحها شعورَ الأمان بهذه القوس المعلّقة إلى كتفه والنشّابات في جعبته. ويسلّيها بحكاياته العذبة وبما يوقّع على ربابه من أنغام حلوة ترسب في أذنيها ولا تنفكّ مترنّمةً في ضميرها. ثم هي تحزن لنصر حزناً قلبياً عميقاً. فأبوه، عمها، قد مات وخلّفه لأمٍّ عقت أمومتها، فما لبثت أن تزوجت وتركته يرعى هذه الغنيمات ويُستأجَر لأغنياء الحيّ، ويأوي وحيداً إلى خيمة شعر موحشةٍ بائخةٍ مهلهلة.

بهتت سعاد ساعة سمعت هذا التهديد من أمها... اندفعت بخطىً مرتبكةٍ ورأسٍ أسرع إليه الدم، فانحازت إلى مكانٍ منحذف قبعت فيه. والليل يلتفّ حولها ويتكاثف سواده.

كانت من قبل تفكّر أحياناً في هذا الإهمال الذي يتعرّض له نصر بعد موت والده: إهمالٌ من جانب أمه التي تزوجت في قبيلةٍ أخرى،

وإهمالٌ من جانب عمّه وامرأة عمّه، أبيها وأمها. لكنّ تفكيرها في هذا الأمر كان طارئاً عابراً. أما الساعة فخُيّل لها أنه تفكيرٌ جدّيٌّ، قويٌّ الإلحاح عليها، شديدُ التشبّث بنفسها.

وفي هذه اللحظة أقبل أبوها شبحاً محدَب الظهر انشقّت عنه العتمة. وكانت قد انصرفت أمها إلى ما تجب العناية به من شؤون. فقال لها أبوها:

– تقعدين، يا سعاد، وأمك تعمل العمل كلّه، أما تخجلين؟

فنادته الأم:

– دعها، لا تأبه لها. لقد وجدتُ ضرورياً أن أُغلظ لها اليوم في الكلام. لئن تكن بنيّةً فهي بعد حينٍ فتاةٌ اكتمل نضجها. ومع ذلك، فما زالت تخرج وتعود صباح مساء، مع هذا الصعلوك المنتوف، ابن أخيك نصر. وليس نصرُ بالطفل الذي لا يزال أثر حليب أمه على شفتيه. وفي تصاحبهما واجتماعهما عواقب لا تُحمد. فوالله لا لمحتها بعد اليوم تكلّمه إلاّ أذقت العصا طعمَ لحمها.

فنظر الأب إلى ابنته خلال الظلمة بعينين قطّب ما بينهما وقال لها:

– قومي، قومي، أسعفي أمك، وإيّاك أن تخالفي لها وصية.

فنهضت سعاد بحركة طواعيةٍ عفوية، تحسّ دمها كلّه احتقن في رأسها. ومشت إلى أمها مُطرقةً، تسعفها في صمتٍ ووجوم.

بعد وقتٍ، وُضع العشاء. فقعدت إليه سعاد مع أمها وأبيها، لكن لم يخفَ أنها كانت تصطنع الرغبة في الأكل اصطناعاً وتقسر عليه نفسها قسراً. ثم انسلّت إلى الخيمة، لم تنتظر أن تنعقد في الحي حلقة السّمر. واضطجعت مغلقةَ الأجفان تتملّق النوم الذي يغمر بالنسيان كلَّ شيء.

لكنها عبثاً حاولت أن تنام... لِمَ يُعامَلُ نصرٌ هذه المعاملة؟ لِمَ يُنبَذ نصرٌ هذا النبذ؟

ومن خارج الخيمة، خلال ذريرات العتمة، تسرّب إلى سمعها صوت أمها الأجش يقول لأبيها:

- كأنّي بهذه الصبية غداً تعلّقت بهذا الصعلوك ابن أخيك على طول المعاشرة. أفنقبله صهراً وهو يتيمٌ فقيرٌ أجير، لا يستطيع دفع المهر، بل لا يكاد يقوى على إشباعها، أو إشباع بطنه اللقمة؟ وأين هو من الشباب الجميل الذي يليق بسعاد وتليق به سعاد؟ أما تُراه كأنّه قفصٌ من عظامٍ في كيسٍ من جلدٍ شُدَّ عليه شدّاً؟ لا، والله! لن أقبل بعد اليوم أن تقع علَيها عينه أو تقع علَيه عينها. لا، والله! ونحن لا شكّ موفّقون إلى صهرٍ موفور المال، عالي النسب، مرموق الشباب.

فأتاها صوت أبيها مخافتاً في الجواب:

- إنك تتكلمين، يا امرأة، كأنّ أحداً فاتحك في الأمر.

- ولَمَ لا؟ لِمَ لا يتقدّم في طلب سعاد رجلٌ من الحي كأبي فاتك، يطلبها لابنه فاتك، بعد أن طلّق زوجته الأولى، ويؤدّي لنا المهر سرباً من نياقه العظيمة، فنقبر الفقر؟ أم أنك تخال سعاداً غير لائقة؟

- كلا، ولكنّي لا أعتقد أنّ هذا يكون.

- غبيّ! ثِق أنْ ليس في شباب الحيّ جميعهم من لا يتطلّع إلى سعاد. وفاتك من أشدّهم تطلّعاً إليها. غير أنّها، البلهاء! لا تتريّث عند واحد منهم. كفاها أن تغدو وتؤوب بقطيعها مع هذا الصعلوك نصر، ذاهلةً غافلة، إلاّ عنه وعن ربابته وما قد يلفّق لها من أشعار. لا تعي ما أوتيت من جمالٍ وقدرةٍ على الإغواء، ولا تفكّر في مستقبلٍ ينفعنا

وينفعها فيه هذا الجمال. ترتدي الجلباب الخشن وتأكل التمر واللبن. ويلي عليها، بلهاء! لكن رويدك حتى أُعلمها...

تلقّت سعاد، في جلاءٍ ووضوح، هذه الكلمات المنبّهة المثيرة الجارحة التي بثّتها أمها في سمع أبيها وكأنها حيّةٌ تفحُّ فحيحاً خافتاً في صمت هذا الليل وصفائه.

سمعت سعاد وفهمت كلَّ شيء. وكأنّ ضباباً كثيفاً كان منتشراً على بصيرتها، فانقشع وتمزّق.

ولو أنّ سائلاً سألها قبل اليوم: هل تحبّين ابن عمك نصراً، لتردّدت في الجواب وحارت. فأيُّ شيءٍ هو الحب؟ كلّ ما تعلمه من نفسها أنها تحسّ باندفاع نحو نصر؛ إلاّ أنها تعهد اندفاعها من شفقةٍ ورأفة عليه. لكن بعد اليوم، بل الساعة، ينبغي لها أن تنظر مجدّداً فيَ زوايا سريرتها. تُرى، أليست تحبّ ابن عمها نصراً؟ وقرعت أبواب نفسها أحاسيسٌ ذكرت أنها لامست وعيها، حيناً بعد حين، منذ أسابيع وشهور، بل منذ أعوام. تلك الطمأنينة العذبة التي تستشعرها إذا دنا نصر، وتلك الوحشة إذا غاب، وتلك المبالاة بأمره حين تجده مهملاً منبوذاً، وإن كان هو لا يعبأ ولا يكترث... يقيناً أنّها تحبّه، وإلاّ فماذا؟ تحبّه ذلك الحبّ العميق القوي الذي ينسج خفيةً، في صمتٍ وأناة، خيوط شبكته الناعمة الدقيقة، حول القلب، حتى إذا استيقظ القلب خافقاً مرفرفاً وجد نفسه في الشبكة.

هو ذاك - لا شكّ في أنّها تحبّه. ويزيد في حملها على التعلّق به اليوم هذا الازدراء الذي تصوِّبه إليه أمها ويسايرها فيه أبوها. ومن طبع الحبّ أن يتحدّى الازدراء. ثم إنّ سعادَ لتمتعض أشدّ امتعاض مما تنويه

لها العجوز. تريد لها زوجاً فارع الشباب رفيع النسب مثرياً. ولا يعني العجوز أهي تحبّ هذا الزوج أم لا تحبّه. جلّ ما تنشده العجوز أن تقبر الفقر، ولو قبرت معه ابنتها! من قال إنّ الوأد انتهى فقد أخطأ. كان شكلاً وصار إلى شكل. جلّ ما تدبّر العجوز من أمرٍ أن تعقد صفقةً كاسبةً مع صهرٍ تنتفع به وتباهي الناس - صهر على غرارٍ فاتك مثلاً، يطلّق ويتزوج، أو يجمع عنده بين الزوجات. وما الذي يمنعه في زعمه وهو صاحب شباب ومال، والبنات بضاعة بيع وشراء؟

وتقلّب ذلك الليل بطيئاً جداً، ثقيلاً جداً، على سعاد. فلمّا حان وقت نهوضها خرجت من الخيمة وئيدة الخطو، يتّشح وجهها الأسمر بالشحوب. ولم تنطق بكلمة، بل ساقت قطيعها إلى المرعى كعادتها، فسمعت أمها تصيح بها في أثرها:

- إيّاك أن تنسي وصيتي لك بالأمس. ولقد بكّرت مع أبيك إلى ابن عمك فأوصيناه أن يتركك وشأنك.

فلم تجب سعاد. ظلّت تبتعد عن الحي مصرّةً على صمتها المغيظ. إلاّ أنها جعلت، بين حينٍ وحين، تسرق اللفتات لترى هل يقبل نصر بقطيعه خلفها، فلم تشهد وراءها سوى وحشة الطريق.

وجدّت فبلغت المرعى الذي اعتادت أن تُسرِّح فيه قطيعها وهي تأمل أن يكون نصر سبقها إليه. لكنها لم تجد في المكان إلاّ فراغاً ثقل على قلبها. ووقفت ترسل نظرها في الجهات على غير طائل. وكانت الشمس قد بزغت وجعلت ترشف بأشعتها قطرات الطلّ عن الأعشاب؛ فأحسّت كأنّ صدرها يجفّ ويظمأ كما تظمأ هذه الأعاشيب لوقع الحرارة، وخُيِّل إليها أنّ شياهها تعبة لا تنطلق ولا

يطيب لها المرعى اليوم كطيبه بالأمس.

وفجأةً بدا لها في البعيد شبحٌ يسعى نحوها عدواً وتطير شملته وعباءته على الريح. فخفق قلبها لا تدري أغبطةً أم ارتياعاً. فقد أملت أن يكون الشبخ ابن عمها. لكنها في الآن نفسه خشيت أن يكون سواه. و لم تدرِ لِمَ تمثّلت لها صورة ذلك الجلف البطر فاتك. فانقبضت نفسها انقباضة اشمئزاز. وتهيّأت لتحطيم جلافته وبطره على صخرة الاحتقار له ولغناه.

غير أنّ الشبح ما لبث أن انجلى عن نصر بقامته النحيفة، يُلوِّح لها بيده، ويبتسم عن نسق أسنانه البيضاء تحت وبر شاربين اسودّا و لم يكادا. ولأول مرّة رأته بعين الأنثى، فاستغربت أن تجد في سيمائه كلّ هذه العذوبة والوسامة.

قال لها وأنفاسه مزدحمةٌ ومراقُ أنفه الأقنى تختلج:

– تركت قطيعي وجئت لألقاك هنيهةً في هذا المكان. لعلّ اللقاء لن يتاح لنا بعد اليوم، يا ابنة العم.

كلماتٌ كانت تتوقّعها فلم تعرها كثير اهتمام، لكنّها جعلت تتفرّس في عينيه العميقتي السواد، بينما هو يتكلّم، فتستشفّ أطيافاً من الألم والحنين والاسترحام تصارع كبرياءَ خرساءَ مصدومة... قالت له:

– لقد علمت كلّ شيء، يا نصر. أبي وأمي لا يرضيان أن نتلاقى بعد اليوم. وقد أنذراني بالأمر ليلة أمس كما أنذراك هذا الصباح.

وأمسكت محدقةً في محيّاه المظلّل بالكآبة العميقة. وكأنّما أفاق فيها طرفٌ من ذلك الخبث الغريزيّ البريء الذي لا تخلو منه امرأةٌ ولو تلقاء من تحبّ، فقالت له مستلذّةً تعذيبه:

- وأي بأسٍ إذا لم نجتمع؟ وعلامَ يجب أن نجتمع؟

فرأت محيّاه يمتقع وعضلات وجهه تختلج كمن يهمُّ بأن ينفجر باكياً. ورأته يخفض عينين جازعتين إلى موطئ نعليها كمن يهمُّ بأن ينهار جاثياً عند قدميها. فارتسمت على شفتيها ابتسامةٌ خفيفة راضية محبورة... إنه يحبّها، يحبّها، برغم أنه قال لها بعد هنيهةٍ من صمتٍ صاخبٍ عنيف:

- كما تشائين!

أوشكت أن تنفجر في وجهه بقهقهةٍ لهذا الجواب. على أنها - وعيناها النجلاوان تبرقان - فاجأته بصوتٍ طفوليٍّ فيه نبرةٌ غريبةٌ من الجرأة والجدّ الرجولي:

- أتريدني يا نصر؟ قل!

فاضطرب حاجباه. واتّسعت عيناه دهشةً لهذه المباغتة. وخشي أن تضيع الفرصة وهو لا يزال يغصّ بريقه. فأسرع الى انتزاع هذا الجواب الذي لاصق حلقه:

- وهل تشكّين؟

- وهل تكون لي وحدي فلا تتزوج عليَّ أخرى، ولو أمكنتك الأيام؟

- أكون لك وحدك، وما كنتُ في حاجةٍ إلى السؤال.

- إذن، فأنت لي وأنا لك! عهدٌ من الله لا ينقضه بشر.

ونفذ من عينيها إلى عينيه ضوءٌ متّقدٌ نقيّ.

- وأبوك وأمك؟

- لن يرياني إلاّ زوجةً لك أو جثّةً هامدة.

فتفجّرت الغبطة في هذا الرمل المحرق الذي اشتمل عليه صدر نصر. وأعجبته لهجة الصدق والعزم في هذا العهد العظيم الذي قطعته الفتاة الصغيرة على نفسها، فسري عنه بعض الجهد وانبسطت أساريره شيئاً، وهمّ بالكلام. غير أنها عارضته كمن يستثيره:

– لا عليك من أبي وأمي. ولكنّي سمعت أنّ هذا الجلف الصلف فاتكاً ربما أرادني.

– فليتجرّأ... وارتسم على محيّاه ظلٌّ سحابةٍ عابرة.

– وما تصنع؟

– لو كان لنشّابتي هذه لسان لأجابتك كيف... تفلق قلبه. سعاد، كنت أستطيع الساعة أن أختطفك فأطير بك بين الأرض والسماء. على أنّ ما يقوله الناس عنك ويعيّرون به عمي يعنيني جداً. لذلك أنتظر. وأنا أعلم أنّ أكره ما يكره منّي أبواك فقري. فلأسعينَّ إذن، ولأبذلنَّ لهما المهر الذي يرضيهما.

ومازجت صوتَ نصرٍ رقّةٌ بعد جفاء، واستأنف يقول:

– ولعلّ هذا الحظّ الذي يعبس لي تشرق أساريره وينطلق بابتسام؛ ولعلّ هذه الطبيعة التي لا تكتسي إلاّ لباساً رقيقاً من الخضرة تنسج لنفسها هذا العام كساءً ضافياً من الأعشاب على نول الربيع؛ ولعلّ هذه السماء فوقنا تنهمر سخيةً فتدرّ ثدي الأرض، فتُروى غنماتي وتشبع وتتكاثر.

ثم صمت نصر كأنّه استغرق في تأمّل هذا الموسم الخصب الذي لوّنته كلماته بأبهج الألوان وأزهاها. وكأنّه حقاً شهد هذا الموسم مقبلاً من بعيد، لا شكّ فيه، فراح يستدعيه ويستحثّه على الدنوّ بكلِّ ما أُوتي

من قوّةٍ وشعور، مبتهلاً إلى الأرض والسماء والله.

ثم أفاق من استغراقه فلم يجد ما يقوله للفتاة الصغيرة القصيرة الشاخصة إليه في حبٍّ وإعجاب، سوى هذه الكلمات:

- والآن يجب أن أنصرف مسرعاً. ويجب أن نصبر فلا نتلاقى إلاّ يوم نستطيع أن نكون زوجين برغم الكارهين.

وأدار ظهره يهمّ بالانطلاق. لكن بدا كأنه يقتلع نفسه من موضعه وقد سُمّر فيه... قالت له سعاد بصوتٍ أغنٍّ دغدغ أذنيه دغدغةً عذبةً مطربة:

- ألا تتمهل لتورد غنماتي الماء؟

فصفق فوراً بكفّيه ونادى القطيع نداءه المألوف؛ فتلفّتت الشياه من كلِّ صوبٍ بعيونها المستديرة المتألّقة صفاءً لأنها تعرف صوته، وهرعت إليه تتراقص آذانها وتتواثب إلياتها في الهواء وراءها، فساقها إلى المورد تتبعه سعاد وخطواتها على الرمل الطري موسيقى صامتة ناعمة. وكان المورد غديراً تبقّى من مطر الشتاء في قرارةٍ رملية، وقد رسبت أكداره فصفا ماؤه ولا صفاء مرآةٍ من بلّور.

شرب القطيع، ونصر وسعاد مائلان على حافّة الغدير ينظران إلى ما ارتسم فيه من عيون الغنمات كأنها خرزٌ كبيرٌ من اللؤلؤ، وجالَ نظره في الماء فشفّ له عن عينيها ووجهها الحبيب. وجالَ نظرُها فلاقى وجهه وعينيه. ونفخت ريحٌ خفيفةٌ في صفحة الغدير فماج الماء وارتعش فيه ظلاّ الحبيبين وتمايلا متدانيين. وكأنّ الرعشة سرت إلى نصر وسعاد فارتبكا لهذا الاضطراب الذي مسّ كيانهما، وحارا فيما يفعلان، فانفجرا ضاحكين.

ثم دار نصر فانطلق كالهارب من شيءٍ، تحمل الريح وراءه عباءته وشملته. ووقفت سعاد تُتبعه عينين واسعتين كعينيّ ظبية تهيم. وتأمّلته في رشاقة حركاته كما تسبح ألحان ربابته على النسيم، فعجبت أن لا تكون فطنت لذلك قبل اليوم. حتى إذا توارى عن بصرها عادت تحدّق في الماء... فلمّا أبصرت وجهها أبت إلاّ أن ترى إلى جانبه مُحيّا نصر وابتسمت له إيناساً ومداعبةً. لكنّ شاةً من شياهها فجأةً عاثت في الماء حيث تطالع سعاد وجهها وتتخيّل وجه نصر، فوحُل الماء، وهشّت سعاد على الشاة التي فرّت واثبة.

ولم يمنعها ما زخر به صدرها من أملٍ حيٍّ أن تشعر بثقلٍ يقعد على قلبها... فتنهّدت.

الفصل الثاني

كان ذلك في أواسط الربيع. والأيام يطرد بعضها بعضاً فيشرف الربيع على نهاية عمره ويتحوّل ما بقي من أعشابٍ هشيماً يندثر في التراب، ونصر وسعاد لا يتلاقيان إلاّ على بعدٍ أو في هنيهةٍ خاطفة كلّما تلاقت بهما الطرق. لكنّ سعاداً كانت لا تفتأ تزور الغدير لتطالع فيه وجهها وتستشفّه عن وجه نصر. كذلك كان نصر لا ينفكّ يختلس الزيارات إلى هذا الغدير. على أنّ سعاداً ونصراً لم يكن ليروّعهما شيءٌ كهذا النقصان الذي يشهدانه في ماء الغدير على التوالي؛ فالأرض يشتدّ ظمأها مع تلاشي الربيع وإقبال الصيف فتبلّ أحشاءَها بما تمتصّ ثم تمتصّ من حوض الغدير.

حقاً إنّ الطبيعة لقاسية! هكذا فكّر نصر وفكّرت سعاد. إنها يومَ تجفّف هذا الغدير ستمحو عنهما لوحة ذكرى هي أعذب الذكريات وأمرأها على القلب. غير أنّ الطبيعة أمٌّ رؤوم أيضاً؛ فلسوف تملأ حوض الغدير مرّةً أخرى إذا ولّى الصيف وأقبل الشتاء، ثم عاد الربيع. ولسوف ينحدر المطر غزيراً جداً هذا العام فتختزنه الأرض في أعماقها حتى تطفح، وحتى لا يبقى حوضٌ على سطح الأرض إلا دَفَق، وحتى

لا تبقى من هذا البسيط الفسيح كلّه تربةٌ بمقدار رقعة الكفِّ إلاّ اكتست خضرةً. فرعت غنيمات نصر وشربت وسمنت وتكاثرت. فأصبح نصر غير هذا الفتى الفقير الذي تزدريه أم سعاد وأبو سعاد، وبات قادراً على أداء المهر الذي يرضي ويغري.

لكن أليس هذا كلّه أماني؟ وشدّ ما تكذب الأماني! وإذا كانت الطبيعة أمّاً رؤوماً فإنها لا تكافئ أبناءها دائماً بما يعتقدون فيها من خير أو بما يتملّقونها به من صلاةٍ وابتهال. ها هو الصيف يقبل بكُرَته النارِيّة: شمسه الملهبة. وكأنّ هذه الشمس في منازل بني عذرة أشدّ إحراقاً منها في مطارح الصحراء الأخرى. إنّ الدنيا لتبدو عند الظهيرة وكأنّها مسقوفةٌ بصفيحة كبيرة من النحاس الأحمر المحميّ. وإنّ الأرض الرملية لتظهر كأنّها فُرشت بالجمر الذي دُقّ دقّاً ونُثر نثراً. ولقد هزلت الماشية هزالاً أصبحت معه ضلوعها بارزةً تُرى على بعد وتُعدُّ عدّاً على الأصابع. أما ضروعها فقد تكمّشت وكأنّها جلمودٌ أيبست ودُعكت دعكاً.

فكيف لهذا الإمحال أن ينقلب إلى خيرٍ مدرار؟

ولو لم تكن لنصر ربابته لقتله حزنه ويأسه. ولو لم تكن سعاد تسمع، ولو على بعد، ألحان ربابته إذا خيّم الليل وبرد الجو، لماتت هي الأخرى يأساً وحزناً.

كان نصر إذا عاد إلى خيمته عِشاءً، فقعد على بابها، يعلم علم اليقين بإلهامٍ من قلبه أنّ سعاداً في خيمة والديها تنتظر ألحانه. فيذبح أوتار الربابة ذبحاً ليخرج منها هذه الألحان النائحة الرتيبة التي تنطلق عن الفكرة الكئيبة المستوحشة. وكان نصر يدرك أنّ أمامه الشتاء بلياليه

الطوال وجوعها وبردها وبرقها ورعدها. فكان سَلَفاً يغرّق سأمه في ألحان هذه الربابة، ولا يسعد إلاّ حين يتذكّر أنّ سعاداً ينصت إليه وأنه يغرّق سأمها هي الأخرى في هذه الألحان التي تحشرج في قفص الظلمة وحضن الصحراء.

ولكنّ الطبيعة لم تخيّب أماني نصر في الشتاء برغم قسوتها في معمعان الصيف. ذلك أنّ الشتاء حقّاً أقبل في هذا العام سمحاً فيّاضاً بمقدار ما كان الصيف كزّاً قائظاً. وكأنّ السماء لم تتدلّ منها سحبٌ وغيوم، بل تدلّت منها قِرَبٌ حافلةٌ ثقيلة راحت تصبّ من فوهاتها وثقوبها الواسعة صبّاً غزيراً لا ينضب. وتطاولت ألسنة البروق ملعلعةً، فكان يخيّل لنصر أنها ستمسح خيمته من الوجود. و لم يكن يؤذيه شيء كما تؤذيه هذه الرعود وهذه الرياح التي تصرع ألحان ربابته صرعاً فلا تصل إلى سمع سعاد. وكان يفرح أنّ يجيء الليل صحواً على شدّة ما يبرد الجو، فيقعد على باب خيمته يذبح أوتار ربابته. لكن الحق أنه كان راضياً في أقصى نفسه على كلّ حال. كان يبصر من وراء هذا الشتاء مراعيَ خصبةً وغدراناً دافقةً وقطيعاً سميناً، وكان يرى من وراء ذلك تحقيق أمانيه في الظفر بسعاد.

وأخذت أيام الشتاء تنصرم، وبدأت تباشير الربيع تطلّ في كلّ مطرح عين. فالسحب انقشعت عن الأفق وأشرق أديم السماء ورقّ النسيم ودبّ الدفء في عروق الأرض وبدت هنا وهناك رقعٌ من البساط الأخضر.

فلم يبطئ نصر في الخروج بغنيماته إلى المرعى، وقصد، أوّل ما قصد، الغدير الذي عكست بالأمس مرآةُ مائه الصافي وجهه ووجه

سعاد. فوجد الغدير يغصّ ويطفح ويموج. إلاّ أنّ ماءه ما انفكّ بعيداً عن الصفاء، فحسب ذلك رمزاً لكدرٍ يلقاه.

وفيما هو قافلٌ قبل المساء، لم يدهشه إلاّ ناقةٌ وبعيرٌ، في شرخ القوة والفتوّة، أقبلا وكأنّ الأرض انشقّت عنهما، فانضمّا إلى قطيعه. فعلم أنهما شاردان وأيقن أنّ صاحبهما لا بدَّ ساعٍ في أثرهما. فلم ينهر نصر الناقة ولا البعير، وأعجبه كيف يتبادلان الشّمّ ويحكّان عنقاً بعنق. ولبث يتابع السير نحو الحيّ كمألوف عادته، وهو يقدّر أنّ صاحب الناقة والبعير، إن لم يدركه الساعة، أدركه بعد قليل، فاسترجع ما له. ولكنّ نصراً بلغ الحي ولم يلحق به أحد، وحجاب الليل قد تكاثف، وأهل الحيِّ قد تعوّدوا نصراً وغنيماته الهزيلة. فلم يقف أحدٌ لينظر إليه فيرى ما يسوق من ناقةٍ وبعير، أو لعلّ من رآه حَسِب الناقة والبعير مُلك وجيهٍ في الحيِّ عهد بهما إلى هذا الفتى الفقير للرعاية.

وقضى نصر ليلةً غلب فيها عليه الأرق وشغل البال. ولم يسرع على عادته تلك العشيّة إلى الربابة، بل ازدرد ما تيسّر له من تمرات قليلة، ثم استلقى على ظهره في أرض الخيمة. ولم يفطن أحد إلى أنّ الحيَّ في تلك العشية يعوزه شيء. بلى، فطنت فتاةٌ في خيمةٍ قريبةٍ تعوّدت أن تنام على ألحان ربابةٍ نائحةٍ رتيبة، وهي موقنة أنّ هذه الألحان إنما تتّجه إليها دون سواها من سائر الناس وتبثّها لواعج قلبٍ ملتاع.

استلقى نصر على ظهره في أرض خيمته يفكّر في الغدير الذي توقّع أن يراه صافياً فوجده كدراً. وانتقل إلى التفكير في الناقة والبعير كيف طلعا عليه فجأةً فانضمّا إلى قطيعه. وإنه ليعلم أنّ الإبل تشرد، وقد يبسم الحظ لمخلوقٍ فتأنس إليه هذه الإبل الشاردة، ثم لا يهتدي

إليها أصحابها فييأسون منها، فتبقى ملكاً لصاحبها الجديد. إنّ هذا، إن صحّ، كان معناه أنّ كَدَر الغدير رمزٌ لفألٍ، لا لشؤم، كما حدّثته نفسه. ولكنه يعلم كذلك أنّ أصحاب الإبل قد يهتدون إليها، وقد لا يكتفون باسترجاعها فيتّهمون من وجدوها عنده بالسرقة والسطو. ومن وراء هذا كلّه عواقبُ غير محمودةٍ لرجلٍ مثله قليل النصير.

إلاّ أنّ الصباح طلع على نصر، فخرج غادياً بقطيعه، ومرّ النهار فلم يأتِ إنسانٌ في طلب الناقة والبعير. فأخذت الطمأنينة تتسرّب من هذه الناحية إلى نفسه، وطفق يضحك من سذاجته لتشاؤمه حين رأى الغدير غير صافٍ. فالغدير سيصفو، لا شك. وأكبر الظن أنّ هذه الناقة والبعير قد أصبحا ملكه بصدفةٍ سعيدة أو بحظٍّ موفّق.

ولكن أين هي سعاد؟ إنها لم تخرج بقطيعها وهو ينتظرها أحرّ انتظار ليسمع منها كلمةً ويختطف منها لمحةً ولو على بُعد.

ولم يفطن نصر إلى أنّ سعاداً لن تخرج بالقطيع هذا العام. فقد اكتمل نضجها وباتت تنتظر الزوج. وقدّر نصر أنه هو الذي بدأ يخرج بقطيعه في أوانٍ باكر، فلن تمضي أيامٌ على عدد أصابع اليد حتى تخرج هي أيضاً بقطيعها فيراها.

على أنه فوجئ يوماً برؤية عمّه يدلف وراء القطيع إلى المرعى. وفوجئ يوماً آخرَ برؤية امرأة عمّه تتولّى رعاية القطيع وتزجره بصوتها الأجشّ الكريه، فلم يعوزه الفهم أنّ سعاداً محجوبةٌ هذا العام في خيمة والديها. فبات وليس له وسيلة اتّصال بها إلاّ ألحان ربابته يناجيها بها كلّ عشاء على باب الخيمة.

وبالطبع، لم يكن معقولاً أن يبقى أهل الحيّ لا يلحظون أنّ قطيع

نصر ازداد فجأة ناقةً وبعيراً، وأنّ هذا البعير وتلك الناقة ليسا ملك أحد من الحيّ. وكان عمُّ نصر أول من لحظ هذا الحادث يوم لقي نصراً في المرعى. فعاد إلى زوجته يقول لها بزهوِّ الرجل الذي استطاع أن يسجِّل تفوّقاً على المرأة في دقّة اللحظ:

– اليوم رأيت ابن أخي نصراً يسوق في قطيعه ناقةً وبعيراً ما أدري كيف حصل عليهما.

قالت وهي تصطنع قلّة اكتراث:

– ثق أنّه لم يحصل عليهما في غزو. لقد سرقهما.

وكانت العجوز – كالدول المستعمرة اليوم – ترى فرقاً بين الغزو والسرقة.

فصمّت الشيخ. ولم يعجب عجوزه أن يصمت هذا الصمت السريع، فأضافت قائلةً:

– لعلّك اغتظت أن تسمع مني هذا الكلام في ابن أخيك. وضحكت، متهكمةً، ضحكةً كأنّها الشوك "يتقصّف" وينطحن تحت أضراس جملٍ قارح. فلمّا رأته ما زال مصرّاً على صمته، دون أن تُشفي فضولها، بدّلت لهجتها فقالت له:

– لعلّ أحداً عهد بهما إليه للرعاية.

فأجابها باقتضاب:

– كلاّ، هما له.

قالت مهتمّةً:

– هل تساوي هذه الناقة والبعير شيئاً؟

أجابها:

- نعم. إنّ الناقة شابّة. والبعير صغير السن. والعشب هذا العام موفور، والماء غزير. فليخرجنّ ابن أخي من فقره فيصبح صاحب غنم وجِمال حين يسمن قطيعه ويتكاثر.

فلم تدرِ المرأة هل يقول زوجها ما يقول مغتبطاً أم مستاءً. ولكنها أحسّت بنار الحسد تشبّ في صدرها فتتأكّل قلبها، وعادت تضحك متهكمةً وتقول:

- وعندئذ تقبل به زوجاً لسعاد!.. إنّ الدم لا يتحول ماء. صدق المثل. والله لا رأى هذا الصعلوك قُلامة ظفرٍ من رِجل سعاد. أفهمت؟

وكانت سعاد ساعتئذ ترتقب ألحان نصر على عادتها كلّ عشيّة، فسمعت هذا الذي يدور بين والديها من حوار. وفرحت أن يكون نصر وُفِّق هذا التوفيق إلى ناقة وبعيرٍ. وحقدت على أمها أن تتّهم نصراً بالسرقة وتزدريه هذا الازدراء، وتعاند هذا العناد كلّه في رفضه صهراً لها. أجل، حقدت عليها الحقد العجيب الذي ينتاب البنت على الأم في مثل تلك الحال.

لكنّ الحوار بين الزوجين لم ينقطع عند هذا الحدّ. فقد أبت المرأة إلاّ أن تعرف كيف حصل نصر على الناقة والبعير. فسكتت هنيهةً بعد أن استشاطت، ثم عادت تقول لزوجها:

- ألم تسأله أنّى له هذه الناقة والبعير؟

- كلا!

- إنك مغفّل. غداً سأخرج أنا بالقطيع فأسأله.

ولو أنّ نصراً كان مطّلعاً على هذا الأخذ والردّ لفهم، حين لقيته امرأة عمه في المرعى، لِمَ وقفت تظلّل عينيها بكفّها من الشمس

وتصوّب إلى الناقة والبعير نظراً نهماً، ثم لَم شخصت إليه كمن يريد أن يخاطبه، لولا أنه أدار لها ظهره مشمئزّاً حانقاً متأذّي العينين، ساعة وقع عليها بصره ولم يقع على سعاد.

وبقي أمر الناقة والبعير، وكيف حصل عليهما نصر، سرّاً من الأسرار يشغل بال أهل الحيّ، لكن لا بقدر ما يشغل بال أم سعاد. وأحبّ نصر أن يلغي هذا الموضوع، فعمد إلى حكايةٍ أشاعها في الحي، قال: إنّ إنساناً غريباً استخلصه فاستودعه هذه الناقة والبعير، على أن يستردهما متى عاد.

فتنفّست أم سعاد تنفس ارتياح، وقالت لزوجها شامتةً:

– لقد علمت أنّ الناقة والبعير يستحيل أن يكونا مُلك هذا الصعلوك ابن أخيك.

وانقطع الحديث عن الناقة والبعير. وأصبح جوّ الحي وليس فيه سرٌّ من الأسرار. على أنّ شيئاً غريباً لم يلبث أن أصبح موضوع عجب الجميع. فهذه غنمات نصر ترعى وترد حيث ترعى غنمات الناس وترد. وهذه ناقته وبعيره يأكلان العشب ويشربان الماء الذي تأكله وتشربه نياق الناس وبعرانهم. لكن ما شأن غنمانه تسمن وتطول أصوافها وتدرّ ألبانها كما لا تفعل غنمات الناس. وما شأن ناقته وبعيره يكنزان الشحم واللحم على غير المعهود من سائر النياق والبعران.

وابتهج نصر، أول الأمر، بهذه البوادر من خير. إلاّ أنّه كان في ساعاتٍ يقلق ويخاف. فقد سمع أنّ الفقير إذا همّ بالسعادة، أو همّت به السعادة، حلّ به البلاء. وما كان يخشى شيئاً من صولة ذئبٍ أو سطوة غازٍ، كما يخشى هذه العين الشريرة التي تحدجه بها امرأة عمّه.

على أنه كان يراجع ذاته فيذكر كيف تشاءم يوم وجد الغدير كَدِراً ثم لم يسفر ذلك عن أيّ مكروهٍ أصابه. فراح، إذا زار الغدير وطالع وجهه في صفائه واستشفّ وجه سعاد، وإذا تأمّل قطيعه كيف يسمن ويسمن، ثم عاد إلى خيمته مساءً يناجي سعاداً بألحان ربابته – راح ينسى كلّ شرٍّ وكلّ إمكانٍ للشرّ.

غير أنّ عشيّةً من العشايا أقبلت تحمل إلى هذا الحيِّ الساكن من أحياء بني عذرة قادماً غريباً يمتطي فرساً ويتقلّد سيفاً وقوساً ونشّاباً، فاهتزّ الحيُّ لمقدمه اهتزازاً. لقد ظنّوه رسولاً أوفده ابن أمّ الحكم من المدينة لجباية الضرائب أو لإنذارهم بوجوب دفعها في وقتٍ قريب. وابن أمّ الحكم يومئذٍ والي الخليفة معاوية تمتدُّ ولايته إلى البادية. فاستقبلوا القادم الغريب بوجوهٍ واجمةٍ تكتم وراءها ارتياباً غريزياً، وقلقاً طبيعياً، يساوران أبناء الشعب تلقاء ممثلي السلطة ولا سيّما الجباة الغلاظ.

لكنّ الواقع أنّ هذا القادم الغريب إنما أقبل يسعى في طلب ناقةٍ وبعيرٍ له شردا منذ أيام وأيام. فسرعان ما انقشع الوجوم عن وجوه أهل الحيّ، غير أنهم حاروا فيما يقولون. هل ينبئونه أنّ الناقة والبعير عند نصر؟ ونصر قد أنفق جهداً في رعاية البهيمتين، فلا يجوز أن يضيع حقّه فيهما. ولكنّ امرأة عمّ نصر لم تتردّد فيما تقول، بل ما كادت تعلم السبب الذي من أجله وَفَد هذا الغريب حتى صاحت:

– الآن اتّضحت الحقيقة. إنّما كذب نصر. زعم أنّ إنساناً استودعه ناقةً وبعيراً، وهو قد وجد الناقة والبعير شاردين فضمّهما إلى قطيعه.

ثم التفتت إلى الغريب فقالت له بحيث تستوثق من أنه يسمعها:

– يا رجل! إنّ ناقتك وجملك عند صعلوك هذا الحيّ نـ...

فانتهرها زوجها انتهارةً لم تكن منتظرةً، وترأرأت غضباً في وجهها عيناه العمشاوان. وقاطعها المجتمعون بدمدمة مغيظة خنقت صوتها في حلقها. ولبث الغريب مدهوشاً لا يعلم ما يقول حتى علا صوتٌ رزينٌ، صوت الشيخ سالم من أهل الحي يوجّه إليه الخطاب:

– ثق، يا رجل، أنّ الناقة والبعير إن كانا لك فهما في مأمنٍ عند نصر. وقد سمّنهما تسميناً. ونصر على فقره فتىً رفيع النفس، استرعيته لي مالاً فأحسن حفظه، فأنا به خبير. ولا بدّ أن يحضر بعد قليل.

وهنا تشاجع الزوج عمّ نصر فقال بلهجةٍ مضطربة تثير الضحك:

– إنها لا تنفكّ تحمل على ابن أخي لأنها تخشى أن يتزوج بنتنا.

فحدجت أم سعاد زوجها بنظرةٍ مهددة. فأشفق الناس عليه ممّا سيصيبه منها إذا خلت به الليلة في الخيمة. وضحكوا مليّاً وضحك القادم الغريب الذي أَنِس إلى الجمع حوله فترجّل عن فرسه.

وأقبل في هذه الأثناء نصر، وكان قد سبق إليه من أنبأه بما دار. فسلّم على الرجل الغريب ورحّب به، ثم قال له:

– تذهب معي، يا أخي، إلى خيمتي فوراً. وتنظر في قطيعي الصغير؛ فإن وجدت بعيرك وناقتك عندي استرجعت حلالك على خير ممّا كان، وإذا شئت بِتَّ الليلة في خيمتي الوضيعة مكرَماً وانطلقت في الصباح.

قال الرجل الغريب:

– نطقت بالحق. وأنا أعرف ناقتي وبعيري بعلامة. هيّا بنا.

فمشى نصر رجوعاً إلى خيمته، وتبعه الرجل الغريب، فما كاد يطّلع

على القطيع حتى عرف ناقته وبعيره بأثر كيٍّ في فخذيهما، ولكنه شهد فيهما سمناً لم يكن من قبل. وصاح الرجل بالناقة والبعير معنّفاً كأنّ البهيمتين تفهمان عنه. قال:

– ويحكما! لقد أتعبتماني جداً، وليكوننّ عقابي لكما صارماً.

ثم وجّه الخطاب إلى نصر فقال:

– أتصدّق، يا أخي، أنّ هذه الناقة والبعير متعاشقان؟ وقد أصررت على فصلهما، فشردا شروداً بعيداً، حتى لقد سعيت في طلبهما أسابيع مديدة وقطعت المسافات المترامية.

قال نصر وكأنّه اكتشف لغزاً كان يحيّره:

– أجل، لقد لحظت أنّ هذه الناقة وهذا البعير يأبيان أن يفترقا ساعةً. وإذن. فهما متعاشقان كما تقول. وشعّت عينا نصر وسبحتا في أفقٍ بعيد. ثم تنبّه فعاد إلى الرجل يقول له:

– أتقبل دعوتي أن تبيت عندي الليلة؟ إنّي أُقدّر أنّ موضعك بعيد، وقد زحمك الظلام.

فأدار الرجل عينيه ورمق خيمة نصر. ففطن نصر إلى حقيقةٍ أحزنته. لكنه قال للرجل:

– لا تزدرِ هذه الخيمة البالية. إنّ القلب الذي يسكن فيها كريم.

وخفّ نصر فأخذ من قطيعه شاةً سمينة وغمس حدّ سكينه في منحرها. فلم يبق للغريب أن يرفض ضيافة هذا الفتى السمح.

ثم انهمك نصر في إيقاد النار. فأضرمها شعلةً ورديّة اللون تحت هذا الدخان الذي تصاعد منها سحباً تبدّدت في الهواء. وتلاعبت ألسنة اللهب تلقي أخيلةً عابثةً راقصةً على الأرض حولها. ثم لم تمضِ

إلاّ دقائق حتى أقبل عمُّ نصر، وعلى أثره امرأته، واجتمع نفرٌ من أهل الحيّ، ونصر يسلخ الشاة ويقطع لحمها فيشويه ويقدّمه للضيف ولمن حضر من أهل الحيّ، وبينهم... فاتك.

ولكنّ فاتكاً لم يحضر للحم يأكله أو لمشاركةٍ في بهجة. فقد رفض اللحم حين عرضه عليه نصر، وقد وقف صامتاً عليه سيماء الاستخفاف ولسان حاله يقول: "متى أصبح مثل هذا الصعلوك يولم للناس؟"، ثم هزّ كتفيه وانصرف لم يستأذن بكلمة. فشيّعه نصر بعينين لاحت فيهما ظلالٌ قاتمةُ اللون سرعان ما احتجبت. وأرسل الضيف في أثر فاتك نظرةَ استغرابٍ لا تخلو من اشمئزاز. ولأمرٍ ما أحسّ الجميع كأنّ غمامةً سوداءَ ثقيلةً انقشعت عن المكان بذهاب هذا الفتى المتعجرف... أمّا سبب ذهابه فربّما لم يكن يجهله أحدٌ إلاّ الضيف. إنّ فاتكاً إنّما جاء يولم بعينيه النهمتين على سعاد، بينما يولم الناس على لحم الشاة. غير أنه خاب فألاً.

وأكل عمُّ نصرٍ حتى تخم. وكانت يد عجوزه لا تتحرك إلاّ في طريقٍ واحدٍ بين اللحم المشويّ وفمها المغمور أبداً دائماً كأنّه تجويفةُ كهفٍ في هضبةٍ جرداء.

ثم شبع الضيف. وكفّ عن الأكل من حضر من أهل الحي. واضطرّ عمّ نصر وزوجته إلى الشبع. فاستطاع نصر أن يفرغ لما يشتهيه حقاً، وهو غير اللحم المشوي، عنيتُ ربابته. فقد كان يتصفّح الوجوه حوله فلا يرى الوجه الحبيب إليه. وما كان في الواقع كبير الأمل بأن يراه. كان موقناً أنّ سعاداً قابعة في خيمة والديها تنتظر... تنتظر اختلاج ذرّات الظلام بنبضٍ ناعمٍ من ألحانه. فسرعان ما نهض إلى خيمته فأخرج الربابة. وجلس في

مقابل النار وقد خفت لهبها، يثير في هذا الجوِّ المحاط بهالةٍ سحريةٍ ألحاناً تهمُّ بصراخٍ ممزّقٍ، ولكنها لا تستطيع إلاّ النحيب والنشيج.

وثقلتْ على عمّه وامرأته التخمة، ولم تساعدهما الألحان إلاّ على النوم. فانسحبا إلى خيمتهما. وأخذ بعض أهل الحي يتهامسون بنصرٍ ويُلمِّحون إلى هذه الفتاة التي يعزف لها ألحانه. واستولى على الضيف شجنٌ عميق، فهمس في أذن رجلٍ من أهل الحي:

– إنّ لهذا الفتى لشأناً.

فأجابه الرجل همساً:

– أجل، هو محبٌّ لابنة عمه. وعمّه يمنعها منه، وامرأة عمّه تراه أفقر وأحقر من أن يكون لابنتها زوجاً.

– قد استطعت أن أستنتج شيئاً من هذا.

وقام الضيف من مجلسه متنحنحاً. فأمسك نصر عن العزف. وقال الضيف لمن حضر:

– شدّ ما تكبّدت في سبيل ناقتي وبعيري الشريدين. لكن اشهدوا أنّهما منذ الساعة حلالٌ لهذا الفتى الكريم، ولقد تعب من أجلهما.

فحيّا الجميع سخاءَه. ولكنّ نصراً لم ينبس ببنت شفة. وعاد يذبح أوتار ربابته والليل يتقدّم وأهل الحي ينصرفون واحداً بعد آخر، والضيف يثقل جفناه، والنار تهمد وتستحيل إلى رماد. حتّى إذا لم يبقَ إلاّ نصرٌ والضيف دخلا الخيمة. فقال الضيف وهو يتهيّأ للاضطجاع على اللبد المفروش:

– لا تحسبني، يا أخي، أردت أن أُظهر فضلاً حين تركت لك الناقة والبعير. لكنّي، ساعة عرفتك عاشقاً مصدوداً، وعرفت أنكم بني

عذرة تهلكون عشقاً، رأيت من الفأل الحسن أن يأتيك محبّان - ولو بهيمتين - قد فازا باجتماع الشمل، ورأيت من الشؤم القبيح أن آخذهما وأفصل بينهما.

فشكر له نصر صنيعه، وما كان ليشكره لولا تأويله اللطيف. ثم قال الضيف بعد سكوتٍ وجيز:

- ستصدقني الجوابَ، يا أخي، إذا سألتك سؤالاً.

- افعل.

- أبينك شيء وهذا الفتى المتعجرف الذي أبى أن يأكل اللحم من يدك فانصرف يهزّ كتفيه استخفافاً؟

بقيت شفتا نصر مطبقتين... قال الضيف:

- أحسّ كأنّ في حلقك غصّةً اعترضتك في الجواب.

قال نصر:

- أجل، أظنه يريد أن يلوِّث زهرة قلبي. لكني وعدت أن أفلق قلبه بنشابةٍ من قوسي إن لم يرتدع.

- قدّرت ذلك، ونِعم ما تصنع.

وساد في الخيمة صمتٌ كثيف.

ثم قال الضيف وقد أحسّ بالنعاس يقهر جفنيه:

- سأُبكر، يا أخي، في صباح غد فأعود من حيث أتيت. وأنا عروة، إن شئت أن تعرف اسمي.

وخطر لنصر أن يسأل ضيفه عن قبيلته ومنازلها، لكنه خشي أن يظنّ الضيف أنّه يطمع في زيارته لمنفعةٍ يرجوها. وغمر النوم الضيف وغرق فيه شاخراً إلى قرار عميق.

غير أنّ نصراً لبث لا يستطيع إغلاق عينيه، ثم تسلّل على رؤوس أصابع قدميه، فقعد أمام الخيمة يتأمّل بقايا النار كيف تُطفأ، ويتأمّل هذا الفضاء الرحب تلفّه السكينة ويذري فيه القمر والنجوم غباراً رقيقاً من ضياءٍ أميَل إلى لون الرماد.

وإذا به يرى ظلاً ترامى أمامه من مسافة، فحدّق وإذا بشبحٍ بشري في سوادٍ يدنو منه. خفق قلبه. لقد ارتسمت في لوحة خياله صورة فاتك. لكن يا للمفاجأة! اقترب الشبح، فكان هو سعاداً تمسّ الأرض بقدميها مسّاً ناعماً رقيقاً كتسلّل النوم إلى الأجفان.

قال لها والكلمات تلتصق بحلقه:

– سعاد، ماذا جاء بك؟ لو أبصرك أحد لكانت فضيحةً دونها الموت.

قالت له وأنفاسها المتسارعة تزاحم كلماتها:

– أتيت أقول لك، يا نصر، أننا على العهد، وأبي وأمي نائمان نوم تخمة. لقد أطعمتهما كثيراً يا خبيث!

قال بها بلهجة من يتوسّل إليها أن تمكث:

– عودي، عودي مسرعةً إلى موضعك. واطمئنّي إلى أنّ الحظّ يبتسم لنا. لقد أقبل هذا الغريب، ضيفي الليلة، يستعيد ناقته وبعيره، لكنه أبقاهما لي.

– عرفت ذلك ممّا كان يتحدّث به أبي وأمي بعد رجوعهما الليلة.

وأدْنت من وجهه عينيها المتّقدتين، وأدنى هو من وجهها عينيه. فلمعت شرارات، وتنادت الشفاه تنادياً أخرسَ، إلاّ أنّه صارخٌ بليغ، ولكنّ الحياء منع الشفاه أن تجيب... أو هو حبُّ بني عذره.

صمت. صمت ودّت معه روحان أن تنطلقا في نجوى صافية مترقرقة لا صخب فيها. ولكن كيف باللحم والدم، وهما يأبيان إلاّ أن يصخبا في جوعٍ إلى اللقاء فيجعلا الصمت مرهقاً ثقيل الوطأة.

وقال نصر بصوتٍ هامسٍ عرّاه الجفاف:

– سعاد، هل لم يزل فاتك يتعرّض لك؟

ففاجأها سؤاله مع هذه الانتقالة الذهنية السريعة، وخافت أن تتلكّأ في الجواب فقالت له:

– ما الذي دعاك إلى ذكر هذا الجلف؟ لا عليك منه يا نصر.

ومضت تحدس في سرها: "تُرى هل درى نصر بما كان؟ هل علم أنّ فاتكاً انتهز الليلة انشغال أهل الحيّ، فأقبل، فوقف عند خيمتها يدعوها إليه ويعدها بالزواج، ويهدّدها بأنه سيختطفها في وقت قريب قبل أن يلتحق بحرس الوالي في المدينة فيصبح فارساً ذا رمحٍ وسيفٍ وحصان؟ كلا، لا يمكن أن يكون نصر قد عرف. فلن تذكرَ له شيئاً إذاً، وإلاّ كانت العاقبة وخيمة".

قال لها:

– أراك استغرقت في التفكير، يا سعاد. لقد حضر فاتك الليلة مع أهل الحي، ثم سرعان ما انصرف مستخفّاً مستهزئاً، لم يقبل أن يذوق طعامي. فلأفلقن قلبه يوماً.

قالت له وهي تتمثّل في ذهنها ما فعلته الليلة بفاتك:

– لا عليك منه، يا نصر. إنّي قادرةٌ أن أهدّده بفضح أمره فيجتمع عليه أهل الحيّ ويصبح مضغةَ الأفواه. وقادرةٌ بنفسي أن أفلق قلبه إذا

تجاوز حدّه. لكنّي سمعت أنه سيلتحق جندياً بحرس الوالي فيريح الحيّ من غلظته. والآن...

– والآن تعودين. قال لها بصوت فيه حنينٌ رجوليّ. وأخذ كفّيها بكفّيه وتعانقت نظراتهما عناقاً حنوناً طويلاً.

ثم انطلقت تدرج بقامتها القصيرة كأنها القطاة. لكن بدا عليها، وهي مسرعةٌ، كأنّها تقتلع قدميها اقتلاعاً من بقعة أرض تغريها بالبقاء. ووقف نصر يرمقها وهي تبتعد، وخُيِّل إليه أنّ هذه النجوم فوقه قد انحدرت إلى سماءٍ تتلألأ فيها بهجةً وأملاً بالمستقبل.

ثم أوى إلى خيمته فاضطجع. لكنّه لبث مستيقظاً يستعيد هذه القسمات الحلوة التي نعمت بها عيناه، وهذه الكلمات التي انسكبت نغماً في أذنيه خلال هنيهة راغدة، وحلم في يقظته أحلاماً أشهى من أحلام النوم.

الفصل الثالث

ولّى ربيع العام، لكنه غادر لنصر قطيعاً شبعانَ ريّان، وزحف الصيف بوهجه ونصر لا ينتظر شيئاً كأن يكون شتاء هذا العام كشتاء العام الماضي، فاتحةً لربيع خصب.

على أنّ همّاً عظيماً جدّ لنصر فربض على قلبه كالجبل... إذا كان فاتك قد غاب عن الحي فالتحق جندياً بحرس الأمير، فإنّ العيون أوشكت في طموحها إلى سعاد، تصبح كلّها عيون فاتك. وطفقت أم سعاد تتباهى بجمال وليدتها وتعلن عنه إعلاناً كمن ينادي على بضاعة، وهي أبداً حريصةً على أن تُذكّر بالمهر الغالي الذي لا قدرة عليه إلاّ لأميرٍ أو ثريّ.

فكيف يصنع نصر إذا قدم هذا الأمير أو الثري يخطب سعاداً، وكيف تفعل سعاد للحفاظ على العهد؟

وحقاً لم يبطئ هذا الخاطب المنغّص أن أقبل، من إحدى الحواضر، على بادية بني عذرة يمتطي فرساً ويرفل في حلّة ثمينة وتصحبه حاشية. كان غنياً جداً، وكان شاباً حسن الطلعة، تأدى إلى سمعه حديث سعاد من واحدٍ من أولئك الخطّاب الذين يتنسمّون للأغنياء أخبارَ

الجميلات. فقدم الحيَّ وذبح الذبائحَ من شياه ونياقٍ حتى لم يبقَ من أهل الحيِّ صغيرٌ أو كبيرٌ إلاّ وقع له نصيبٌ وتحدّث بغنى هذا الأمير الغريب وكرمه.

وامتلأت أم سعاد بما أكلت، لكنّها كانت أعظم امتلاءً بما أحسّت من كبرياء. واغتنمت فرصةً فقالت لزوجها:

– إنك زهيت لأنّ هذا الصعلوك ابن أخيك ذبح شاةً عجفاء ليحمل رجلاً على الحياء فيترك له ناقةً وبعيراً. فاشهد الآن كيف تكون الذبائح. والله لأزوجنَّ هذا الفتى السخي، وسواء عندي أن ترضى أو تكره.

وصفّقت أم سعاد بكفّيها ونادت ابنتها من داخل الخيمة لتخرج إلى الفسحة أمامها فيراها خاطبها.

لكن ما أشدّ ما كانت دهشة الأم حين طلعت البنت مقنّعة الوجه بالسواد. لقد مسّت القِدر بأطراف أصابعها ثم مسحت على وجهها، فبرزت، حين برزت، عابسةً مقطّبةً منبوشة الشعر تحملق بعينين تقدحان النار، وتغتصب ضحكاتٍ متقطعةً بلهاء. كانت لها حقّاً سحنة المجنونة، ولم يكن على طلعتها أثرٌ لهذا الجمال الذي شُهرت به. وجعلت تلوّح بيديها تلويحاً عصبياً وتشدّ ثيابها تريد تمزيقها وتصرخ بأمها وأبيها: أبيعاً تبيعانني؟ ثم تلتفت إلى الغريب الذي جاء خاطباً فتنفجر به مقهقهةً وتقول له: خدعوك! خدعوك! سمعتَ بحسناءٍ جئتَ تشتريها، فإذا بهم يعرضون عليك مجنونة! فانصرف، جزاك الله عن مشقّةٍ تكبّدتها.

كانت سعاد تصطنع الجنون اصطناعاً. وقد عجزت عن حيلةٍ أخرى

تتدارك بها الكارثة التي تنزل بها إذا تزوجت خاطبها الغريب. على أنها وفقت توفيقاً عجيباً في اصطناع الجنون وتمثيله، ولعلّها في تلك الهنيهة لم تكن تخلو حقاً من شيءٍ من الجنون الصحيح.

ثم أخذها وجومٌ وسهوٌ عميق، واستولت على والديها وخاطبها وعلى الحاضرين جميعاً بهتةٌ شاملةٌ ملؤها الجزع لما أصاب هذه الفتاة من بلاءٍ مفاجئ. وانسحبت سعاد إلى داخل الخيمة وهي تسائل نفسها على صغر سنّها: أليس لفتاةٍ أن تدفع عنها شرّاً إلاّ باصطناع شرٍّ أعظم؟

وانفضّ من حضر من أهل الحي في سكينةٍ كسكينة الأشباح، وقام الخاطب الغريب فانصرف انصراف الشاري عن صفقة غير موفّقة. ولحق بسعاد أبوها ثم أمها فوجداها منكبّةً أرضاً على وجهها، يضطرب جسمها بما تنشج من نشيج تحاول أن تكبته لئلا يُسمع.

وشاع في الحي أنّ سعاداً جُنّت، وانتهى النبأ إلى نصر فكاد يُجنّ هو الآخر، وأسرع إلى خيمة عمّه مستفسراً. لكنّ امرأة عمه استقبلته مكشّرةً تهزّ سبّابتها في عينه حتى لتوشك أن تفقأها، وردّته على عقبيه. فأقام نصر يتحيّن الفرص للقاء سعاد.

ثم لم تنقضِ أيامٌ حتى طفقت أم سعاد تتحدّث في الحيّ أنّ ما أصاب ابنتها لم يكن إلاّ عارضاً فزال. وحقاً رجعت سعاد إلى مألوف عادتها منذ أن استيقنت أنّ خاطبها الغريب ذهب إلى غير رجعة. على أنها لم تنسَ أنّ نصراً سيجزع لما يسمع من خبر جنونها، فعزمت على أن تلقاه. وليس أصلح من ظلمة الليل تلقاه فيها خلسةً إذا نام والدها وتمكّن النوم من الحيّ كلّه.

وعلى هذا انسلّت مرةً أخرى في إحدى الليالي شأنها من قبل، بعد

أن خمدت النيران وأمسك نصر عن العزف على ربابته وأطبقت على المكان سكينةٌ خرساء.

فلمّا بلغت خيمة نصر كفاها أن تجرّ نفَساً طويلاً حتى استيقظ ولقيها كالمخبول يفرك عن عينيه أثر النوم.

قالت له في سذاجة: أتيت لأخبرك أنني غير مجنونة، لكنني سأُجنّ كلّما خطبني سواك.

قال لها: هل حدّثتك بحديث الناقة والبعير، يوم وجدتهما شاردين، لَمَ شردا؟

قالت: ما أذكر.

قال: إنّ صاحبهما لمّا جاء في طلبهما حدّثني أنهما متعاشقان، وقد شردا لمّا أصرّ على الفصل بينهما.

فأضاءت لُمى ثغرِها ابتسامةٌ حلوة، وقالت: تعني أن نشرد.

قال: إن لم يكن بدٌّ من الشرود.

قالت: نحن على العهد... ودارت لتنصرف.

قال: قبل أن تمضي زيدي من أنفاسك قليلاً في خيمتي، وهاتي يدك ليدي.

فتنهّدت وأسلمت كفّها الطفلة إلى كفّه لحظة أغمضت فيها عينيها، وردّت رأسها إلى وراء عارضةً نقاط الوشم الزمرّدي في ذقنها، مفتوحة الشفتين فتحاً رقيقاً. فلم يملك الفتى أن دنا من تينك الشفتين بشفتيه المختلجتين، ولكن دنوٌّ متردّدٍ أغراه بالسرقة شيءٌ عزيزٌ نفيسٌ يخشى لمسه. ولمحته الفتاة خلال أهدابها المسبلة الطويلة يدنو منها هذا الدنوّ، فتراجعت مذعورةً وفتحت عينيها فتحاً كبيراً عن سؤال

دهشة وتعجّب. قالت له وكأنّها تئنّ أنيناً ولا تتكلم:

– أولسنا عذريين، يا نصر؟

أجابها وهو مسمّر العينين بالأرض لشدّة خجله:

– نعم. ولكن... ولصقت بقية الكلمات بحلقه، فانفلتت منه وغادرته في ارتباكه. و لم تكن أقلّ منه ارتباكاً وهي تبتعد متغلغلةً في الظلمة.

... وكان طبيعياً أن لا يصدّق أحد أمَّ سعاد إذ تقصّ أنّ ابنتها عوفيت من نوبة جنونها. وكثر اللغط في الحي بهذه الأم التي تعلن عن جمال ابنتها إعلاناً، وتأبى أن تزوِّجها إلاّ من أميرٍ أو غني طمعاً في غلاء المهر ولو أدّى ذلك إلى جنون الفتاة. وانقسم أهل الحيِّ في شأن الأب. فمن قائلٍ: إنّه ليس أقلّ جشعاً من امرأته. ومن قائلٍ: إنّه مسكينٌ قهرته امرأته على إرادته. ولو كان له الأمر لرضيَ من ابن أخيه بمهرٍ يسيرٍ وزوّجه الفتاة.

هذا، وأيام الصيف تنقضي سراعاً، والشتاء يدنو، وقطيع نصر لا يبدو عليه أثرٌ من هزالٍ لما كنز من شحم ولحم زمن الربيع. وحين أقبل الشتاء لاحت التباشير بأنّه سيكون خيّراً. وجاء الربيع خصباً كربيع العام الفائت. ولقحت الناقة. و لم تبقَ شاةٌ عند نصر إلا لقحت، فتضاعف قطيعه أو أوشك.

ولقيَ نصر عمَّه يوماً في المرعى، فقال له عمُّه بعد أن وقف يحجب الشمس عن عينيه العمشاوين بكفّيه ويتأمّل القطيع السارح:

– يا ابن أخي، أرى أنّ الله بارك في قطيعك.

أجابه نصر: أيعجبك هذا؟

قال عمّه: و لمَ لا يعجبني؟

قال نصر: ظننتك كامرأتك.

وسادت هنيهةُ صمتٍ ثقيل. ثم استأنف نصر يقول: لو شئت لأصبح هذا القطيع كلّه لكَ.

قال عمه وقد انتعش النور الكابي في عينيه: وكيف؟

قال نصر: تزوّجني سعاداً فأدفعه لك مهراً. أم أنت تخاف امرأتك؟

قال عمه: إنها مثلي يعجبها قطيعك. لكن كيف تصنع إذا تزوجت سعاداً ولا قطيع لك؟

أجابه نصر كمن يتهكّم: أنتظرك، يا عم، حتى تموت أنت وعجوزك فترث سعاد القطيع. بقيَ أن تزوّجني سعاداً ولا عليك.

قال عمه وعيناه مغرورقتان: أترك لك زوجين من غنم، يا ابن أخي. وثق أنّ امرأة عمك ما كانت لترضى لولا أنني جادلتها أعنف جدال.

قال نصر بمرارة: ولولا أنّ الأمير أو الغني الذي تنتظره امرأة عمي صهراً لم يأتِ، لأنّ سعاداً آثرت أن يسمع عنها الجنون على أن تكون سلعةً للتجارة.

... بعد أيام، في ليلة ربيعية صافية من ليالي البادية، قام عرس في حي بني عذرة – عرس فقير، بساطه الرمل وزينته نجوم السماء، زُفّت فيه فتاة إلى فتى وكلاهما لا يملك إلاّ الشباب والآمال. لم يكن في العرس غير ذبيحةٍ أو ذبيحتين ممّا تبرّع به بعض الأجواد. و لم تشهد العرس عجوز سعاد لأنها كانت مشغولةً بفحص القطيع الذي تسلّمته مهراً لفتاتها. راحت تقول: خدعنا نصر، فليس قطيعه ثميناً بقدر ما كنّا نظن.

لكن حسب هذا العرس على فقره إنّه لم يكن كبعض الأعراس مأتمَ قلبٍ سُلخ عمّن يحبّ وضُمّ إلى من يمقت؛ لم يكن كبعض الأعراس تحنيطاً للمرأة في رمسٍ يسمّى بيتاً زوجياً. وفارقت ربابة نصر ليلتئذٍ ألحانها الرتيبة النائحة، فكانت تغرّد تغريداً. وألسنة النار التي أوقدت للمناسبة السعيدة بدت كأنها تتراقص على تموّجات الغبطة العميقة في أغوار هذه الألحان.

ولم تنسَ تلك الليلة، ساعة انفردا في الخيمة فأسلمت إليه شفتيها، أن تسأله، وفي صوتها، هذه المرّة، نبرةٌ من دلالٍ لا جدٌّ: أولسنا عذريين يا نصر؟ فأجابها غير مرتبكٍ وعيناه ملء عينيها: أجل، ولكن ألسنا من بني الطبيعة قبل أن نكون من بني عذرة؟

الفصل الرابع

العجيب أنّ امرأة عمّ نصر لم تكن كاذبة حين قالت إنّ قطيع نصر ليس سميناً بقدر ما كانت تظن. فقد رُفعت البركة دفعةً عن هذا القطيع منذ أن تسلّمته. أصاب الهزال غنماته وأصاب الناقة والبعير. وكأنّ اليد التي كانت هذه المرأة تجسّ بها القطيع يدٌ سامّة وأصابعها أفاعٍ وحيّات. ثم ما لبث الموت أن لحق ببعض الغنمات وفاز منها الذئبُ بنصيب. وما لبث البعير وناقته أن جربا، وبعد ذلك شردا فضاعا.

فقالت العجوز لزوجها: لعن الله الساعة... أقسم أنّ هذا الصعلوك ابن أخيك لساحرٌ على اتّصالٍ بالجنّ، وإلا فكيف طرأ على سعاد طارئ الجنون يوم جاء يخطبها ذلك الفتى السريّ الغنيّ، وكيف يقع اليوم لهذا القطيع الذي أخذناه مهراً لفتاتنا ما يقع من عظيم البلاء؟

وردّدت العجوز مثل هذا القول لبنتها سعاد، تريد أن تزرع الخوف في قلبها من نصر. وسعاد تلحظ أنّ زوجها لا يأتي عملاً إلاّ وُفّق فيه. فقد رعى قطيعاً لرجالٍ موسرين من أهل الحيّ بعد أن دفع قطيعه مهراً لابنة عمه، فكان القطيع ينمو ويزداد برعاية نصر. وكانت مكافأة نصر لا بأس بها، رغم ما حاول أصحاب المال أن يأكلوا من تعبه. وقد صنع

نصر قوساً وُفّق بها في يومين إلى قنص غزالٍ وصرْع ذئبٍ. وكان زوج الغنم الذي بقي له من قطيعه يسمن ويزكو. فإذا استمرّت الحال على ما هي عليه، فنصر سيعود صاحب قطيعٍ صغيرٍ في زمن قريب.

ووجدت سعاد أنّ مثل هذا الأمر بعيدٌ من أن يكون طبيعياً. فلمّا سمعت من أمها أنّ نصراً ساحرٌ، على اتّصال بالجنّ، لم تصدّقها. ولكنّها لم تكذّبها التكذيب كله. وأصبحت تتأمّل نصراً، فإذا هو غير فائق الحسن إذا قيس بالمعروف المألوف من مقاييس الجمال. فهذه أذناه في جانبي رأسه دقيقتان كأنّهما أذنا جرذ! وضحكت للتشبيه. ولكنها مع ذلك تحبّه حبّ عبادة. والذي تعلمه من نفسها أنه لم يكن، على حبّها له من قبل، يثير فيها ما يثير اليوم من شغفٍ عنيف. لقد حبك لها، في خفاءٍ وفي صمت، خيوطاً غير منظورةٍ شدّها بها إليه شدّاً محكماً. فليس بالمستبعد أن يكون ساحراً، على اتّصالٍ بالجنّ، كما تقول أمها.

فعزمت يوماً على أن تسأله إذا انتهت هموم النهار ففرغ لها وفرغت له، ليلاً، في هذه الخيمة الوضيعة التي مُلئت هناءً بهنائهما. قالت له وقد ضرب سكون الليل رواقه على الدنيا:

– يزعمون، يا نصر، أنك ساحر، على اتّصال بالجن، فهل صحيح هذا؟

فانفرجت شفتاه السمراوان بابتسامةٍ عن أسنانه البيضاء التي لمعت في العتمة. قال لها:

– ومن هؤلاء الذين يزعمون هذا الزعم؟

ولم تكن سعاد لتخبّئ عنه أمراً، فأجابته على الفور:

- إنها أمي.

- وهل صدّقت العجوز؟

- يحيّرني، يا نصر، كيف تنمو في رعايتك القطعان، وتضمحلّ في رعاية غيرك؟

- تعنين أمك مثلاً. تلك امرأةٌ، يا سعاد، لا تحبّ. تلك امرأةٌ تعيش على الحسد والطمع الأعمى. ولا بركة على يدِ من لا يحبّ.

فسكتت مقتنعةً. فأضاف مستأنفاً الكلام:

- هو الحبّ يصنع العجائب، فيُظنّ ذلك سحراً واتّصالاً بالجن. وابتسم ابتسامته العريضة التي تلمع في أثرها أسنانه البيضاء وتتقلّص أذناه الجرذيتان. فختمت سعاد على شفتيه بقبلةٍ خاطفةٍ عنيفة، وفركت بكفّيها أذنيه الدقيقتين.

ولو أنّ عجوز سعاد كانت امرأةً أخرى لنزلت على حكم الواقع. لكنّ العجوز - وتلك طبيعتها - أبت أن تطمئنّ إلى المصير الذي ظلّت تزعمه مجحفاً بابنتها، وهي في الحقيقة إنّما تعتبره مجحفاً بذاتها لأنها لم تستوفِ المهر الذي يليق بجمال ابنتها، عدا أنّ هذا المهر قد نفخ فيه إبليس نفخةً ملعونةً فطار أو أوشك أن يطير.

وتربّصت أم سعاد على مضض تنتظر اليوم الذي تستطيع فيه أن تفصل سعاداً عن نصر لتزوّجها رجلاً تستوفي منه المهر كما يجب أن يُستوفى... حتى لاحت لها، آخر الأمر، فرصتها المطلوبة.

ذلك أنّ أهل هذا الحي المنقطع في الصحراء أصبحوا يوماً يتحدثون بأمرٍ عظيم، يردّدون ما سمعون من أنّ ابن أمّ الحكم قادمٌ من المدينة غداً للصيد في تلك الجهات. ومعروفٌ مَنِ ابن أم الحكم. هو الوالي

على هذه البادية، نصّبه الخليفة في دمشق يومئذ: معاوية بن أبي سفيان. وبالطبع لن يخرج ابن أم الحكم إلى الصيد إلاّ ببطانته وخدمه وخيله. ولعلّ خروجه هذا ليس في سبيل الصيد بقدر ما هو عرضٌ لأبّهة الدولة، وغرسٌ لهيبتها في الصدور، ومناسبةٌ يفرّق فيها على سبيل الإحسان والهبة بعضَ ما يستقطر من دم الرعيّة وعرق جبينها، فيتناقل الناس حديثَ كرمه وكرم الدولة التي يمثّلها.

وكان حتماً أن تسمع أم سعاد بهذا الحديث الخطير، وأن تفكر في اغتنام هذه الفرصة النادرة حتى أقصى حدّ. وإذا كان الوالي يطلب ألسنةً تلهج بالثناء عليه وعلى الدولة، فلسانها في هذا المجال أطول لسان. فلمَ لا يصيبها حظٌّ من هذه العطايا التي ينوي تفريقها؟ بل إذا كان الوالي يخصّ الفقراء بعطفه دون سواهم، فهي فقيرةٌ جداً تلف قطيعها وهلك.

وعلى هذا عزمت في نفسها أن تتعرّض له فتلقاه. سوف تخرج غداً ببضع غنيمات من قطيعها الأعجف، وسوف تلبس ثوباً مخرّقاً لا يستر منها إلاّ مواضع العورات، وسوف تمضي إلى ابنتها سعاد فتذرف لديها الدموع وتقول لها: اخرجي معي نلقَ الوالي ونبكِ بين يديه، فأزعم أنني أرملة وأنك يتيمة، ليس لنا ما يمسك أرماقنا. إنه عندئذٍ لن يبطئ عن الإحسان إلينا.

وانطلقت أم سعاد إلى ابنتها ففاوضتها في الأمر، وسكبت دموعاً غزيرة، وأثارت شفقتها على أبيها، فقالت سعاد:

– رويدك حتى أسأل نصراً رأيه.

ولم تنطلِ الحيلة على نصرٍ حين كلّمته سعاد. أدرك فوراً ما ترمي

إليه العجوز من غايةٍ خبيثة. علم أنّها إنّما تريد أن يقع نظر الوالي على سعاد وجمالها الفاتن، فلعلّ شيئاً بعد ذلك يحدث.

فقال نصر لسعاد:

- هذا أمرٌ لست أستطيع أن آذن لك به. إنّ عجوزك تنوي استدراجك والتغرير بك. ثم ما شأننا نحن والوالي؟ لئن اشتهت أمُّك أن تظفر ببعض الفتات ممّا يتساقط من مائدته، فليست بنا حاجة.

فأسرعت سعاد إلى أمها تبلغها الرفض. وكانت العجوز قد أقنعت الأب الضعيف بصواب ما عزمت عليه، وأطمعته في عطاء الوالي. فاجتمع الوالد والأم على البنت الرقيقة يسترحمانها أن لا تردّ لهما هذا الطلب.

قالت سعاد:

- ولكنّ نصراً لا يرضى.

أجابتها العجوز بمرارة:

- كأنّ نصراً هو الذي حملك في أحشائه الأشهر التسعة، وكأنه هو الذي وضعك إلى الدنيا صارخاً متوجّعاً، ثم كأنه هو الذي أرضعك من ثدييه وسهر عليك الليالي.

وقال الأب مسايراً امرأته:

- وكأنّ نصراً هذا هو الذي أفرغك من صلبه. يا ابنتي، ساعدينا بما لا يضيرك ولا يكلّفك شيئاً.

فاغرورقت عينا سعاد وقالت لوالدها:

- إن نصراً لا يريد. وقد قال لي إنّ أمّك تنوي استدراجك والتغرير بك.

فاضطرب الوالد وامتقع لونه وحدَّج امرأته بنظرةٍ مسترِيبة من عينيه العمشاوين، وقد فهم حقيقة ما تعني كلمة نصر، لكنّ العجوز أجابت فوراً دونما ارتباك:

– طبعاً! طبعاً! أريد استدراجك. إنّ الوالي ساعة يقع عليك نظره في هذا الثوب الخشن البالي وهذا الجلد المدبوغ بالشمس سيُجنّ جنوناً وينسى جواري المدينة، ومغنياتها وبنات المقاصير والحمامات في دمشق. يا ابنتي، قولي لنصر إنّ للحُمق والسُّخف حدّاً.

ولأول مرة أذنت العجوز لنفسها أن تستهين بجمال ابنتها.

وكأنّ الشيخ اقتنع بما قالت عجوزه فهزّ رأسه علامة الموافقة.

فعادت سعاد إلى نصر وقلبها في قبض قوية تشده وتعصره. قالت له:

– يا نصر، إنّ لأبي وأمّي عليّ حقاً. وهما في حالة يرثى لها. ولو كنّا نحن في يسرٍ لوسّعنا عليهما من مالنا. وأنا لا أرى بأساً في أن أخدمهما بما لا يضيرني ولا يضيرك. وهب أنّ أمي كانت لها النيّة السيّئة التي تحسّها، وتوجس منها شرّاً، فما أحسب أنّ الوالي سيهتمّ لي، ولديه بنات المقاصير والحمامات في دمشق وجواري المدينة ومغنياتها.

قال نصر:

– إذن فأنت وشأنك، يا سعاد. قالها بأطراف شفتيه دون أن يكون فيها صدى من قلبه.

وبزغت الخيوط الأولى من صباح اليوم التالي، فإذا الطريق التي تمتد من الحي متّجهةً نحو الفضاء الطلق تحمل امرأتين: عجوزاً قردة وبنتها الوردة، تسيران في ثيابٍ رثّة وتسوقان أمامهما بضع غنمات هزيلات.

وفي الآن نفسه، كانت في موضعٍ من هذا الفضاء الطلق، حول الغدير الذي طالما تلاقى عنده نصرٌ وسعاد، خيامٌ كبيرة تُنصب وخيولٌ كثيرة تُربط - تلك خيام الوالي ابن أم الحكم وخيول حاشيته وخدمه.

وبقيت تسير المرأتان حتى ارتفعت الشمس في القبّة في ذلك اليوم من أواخر الربيع وأوائل الصيف. ثم أُتيح لهما أن تُشرفا على الموضع الذي أُقيم فيه مخيّم الوالي. فخفق قلباهما، وراعهما على بعدٍ ذلك القماش المقصّب الذي صُنعت منه الخيام يتألّق في شعاع النهار ويمتزج تألّقه بتلألؤ الغدير ولمعان أسنّة الرماح التي رُكّزت في الرمل سياجاً رمزيّاً للمخيّم. وانجذبت العجوز نحو الموضع انجذاباً. إلاّ أنها هابت أن تدنو منه فوراً. وكان همّها الأول أن تلمح شخص الوالي لمحةً ولو على بعد. واشتهت لو أنّ واحداً من أولئك الخدم الذاهبين الآيبين يلتفت إليها ويدنو منها فتسأله عن الوالي: أيٌّ هو؟ وأين هو؟

فأمّا سعاد فما لبثت أن رجعت بها الذكرى إلى يوم كانت تلقى نصراً في هذا المقام، واستغرقت استغراقاً حلواً عذباً.

وظلّ الخدم يذهبون ويؤوبون منهمكين في أعمالهم. وأم سعاد تلحظ وترتقب الفرص، ولا تفتأ تهشّ على غنماتها الهزيلات. وسعاد في استغراقها وسهوها تبدي مللاً وتتحدّث بالعودة إلى الحيّ، فتنهرها أمها وتصيح بها:

- لم يئنِ لك أن تشتاقي إلى نصر! والشمس تزداد ارتفاعاً في القبّة حتى دنا الظّهر.

فرأت أم سعاد أنْ لا معنى لهذا الإنتظار الطويل الذي خشيت أن

يودي بصبر بنتها، وعزمت أن تمضي إلى الخدم فتسأل عن الوالي مهما تكن العاقبة.

لكن في الهنيهة التي اندفعت فيها نحو الخيام، سمعت وقع حوافر. قالت لها بنتها: إني أرى سحاباً من غبار يثور وينعقد في وهج الشمس ويقترب منا.

وبعد قليل كانت ثلّة من الخيل، عليها الفرسان، تحيط بالأم وبنتها. ونبحت الكلاب ساعة رأت هاتين الأعرابيتين في الثياب الرثّة. ونفرت الغنمات الهزيلات. فارتاعت سعاد - ارتاعت لمشهد هؤلاء الفرسان على الخيول المطهّمة، ومعهم السيوف والقسيّ والنشّاب. ولأمرٍ ما طافت بذهنها صورة فاتك، فتخيّلته بينهم. ودبّت فيها رعدة خفيفة. على أنّ أمها ملكت هدوءها، فتقدّمت من الفارس الذي يسير في طليعة الخيل وقد قعد بطنه قدّامه على سرج الجواد، واحتقن وجهه الفرزدقيّ من شدّة الجهد، وغطّت صدره لحيّةٌ عظيمةٌ ذرّ عليها رماد الشيب، فحيّته بالولاية، ولم تخطئ فراستها. دلّتها غريزة العبد التي فيها على من هو السيد. ومسحت بيدها على عنق جواده الذي يتصبّب عرقاً ويضطرّب منخراه بما يدفع ويجرّ من أنفاس.

فنظر الوالي إلى فارسٍ من حاشيته، كان إلى يمينه، وقال له:

- ما رأيت كاليوم قلّة حظّ. لم أُوفَّق إلى صيدٍ أصطاده. ثمّ ها أنا أقع على أعرابيةٍ عجوز.

وإذا بالفارس يحوِّل إلى الأعرابية وجهاً مقمّطاً بشملة، تعقف فيه شاربان متعجرفان، وبرقت عينان نهمتان. إنه فاتك إياه! فقابلته العجوز بابتسامةٍ متزلّفةٍ على شفتيها الجافتين، وغمزته غمزةً إبليسيةً

من عينيها الخرزيتين الغائرتين. فلوى فاتك عنقه فهمس في أذن الوالي همساً غير قصير.

ثم تكلمت أم سعاد، قالت:

- سيدي الوالي على حق حين ذكر قلّة حظّه اليوم، أعاد الله حظّه موفوراً مشرقاً. أما أنا فلم أجد كاليوم سعادةَ حظّ. لقد لقيت الأمير! ولو كان لي أن أستوقف الزمان لاستوقفته وأنا في عتبة العشرين لألقى به سيدي. لكنّ الإنسان لا يُلام إذا قصّر عن المستحيل، والشجرة القديمة لا تُلعن إذا أوشكت أن تيبس، بعد أن تنبت شجرةً أحسن منها رونقاً ونضارة.

قال الوالي:

- قاتلك الله ما أفصح لسانك وأجرأ حنانك! أرنا شجرتك التي أنبتّها والتي تدّعين لها الحسن والرونق. وذهبت عينا الوالي، في صحبة عيني فاتك، تلتسمان هذه الدمية الرشيقة التي وقفت على بعض البعد مديرةً ظهرها.

فصاحت الأعرابية: سعاد!

فانفتلت الدمية في تباطؤٍ وحياءٍ وجلال، وأطلّ وجهٌ أسمرٌ رقيق بمقلتين تنفذان إلى الأعماق وتقتنصان النفس، وتتكسّر على أشعتهما أشعةُ كلّ نظر. وأسرعت أم سعاد إلى اصطناع الغصّة في صوتها وقالت:

- عجوزٌ فاقدة النصير، ويتيمةٌ مسكينة، أرملةٌ مقهورة، أيها الأمير. ليس لنا إلاّ هذه الغنمات العجاف وما يهب لنا الكرماء من فضلهم وفضل الله.

على أنّ ابن أم الحكم لم يكن يصغي إلى ما تثرثر به هذه الأعرابية. كان يومئ بيده إلى سعاد أن تقترب، وهو متحلّب الريق في الفم، ويميل على فاتك بجانبه فيقول له همساً أو كالهمس: "سترى أنّ صيدي اليوم كان خيراً من صيدكم جميعاُ!" وفاتك يوشك أن لا يعي ما يسمع، فهو يحاول أن يصمد بعينيه أمام نظرات سعاد القادحة، ويتمثّل يوماً يستطيع أن ينفِّذ ما هدَّدها به من خطفها والانطلاق بها فوق جواده ليقضي وطراً أبته عليه. ذلك وفاتك يتساءل: أيمكن أن يكون نصر حقاً مات، فسعاد اليوم أرملة؟

وقد ثقلت رجلا سعاد وهي تدنو من الوالي، فكأنّ قدميها الصغيرتين الرشيقتين أصبحتا عبئاً عليها باهظاً. فأهابت بها أمها أن تسرع، فخطت وهي تحسّ الريبة في هذا الرجل بغريزة الأنثى التي تحسّ ما يجول في خواطر الرجال، وإن لم يصرّحوا تصريحاً.

قال الوالي يخاطب الأم:

– أمتزوجةٌ ابنتك؟

فعلمت العجوز أنه لم يكن يصغي إليها حين ذكرت أنّ ابنتها أرملة. وانفتحت لها وراء هذا السؤال آفاق، فأجابت:

– أما وقد سألت، أيها الأمير، فهي متزوجة، لكنّ زوجها، وهو ابن عمها، فقيرٌ يسير النفع.

فلم تستطع سعاد مواصلة الصبر على هذا الغليان الذي جاش في صدرها. تجعلها أمها أرملةً، أول الأمر، ثم تهين زوجها وتحتقره، وتجعلها يتيمةً، فتدفن أباها الشيخ المسكين قبل وفاته. وتستدرجها إلى هذا المكان، فتولم عليها عيون رجلين نهمين وليمةً دنيئة. فانفجرت

سعاد صارخةً بكلام لا يُفهم، وولّت هاربةً باتجاه الحي. فأتبعتها أمها قهقهةً مرة، وقالت للوالي الذي ذهل:

– اعذر خجلها وخفّتها، يا سيدي.

قال الوالي: أظنّها متعلقة بابن عمها.

قالت العجوز: ولكن تعلّق الأطفال الأغبياء. والله لو قست ابن عمها هذا بشسع نعلك لرجحه. سل عنه هذا الفارس إلى جانبك، فهو من حيّنا، وهو يعرفه حقّ المعرفة.

قال الوالي: لا عليك، يا عجوز، لقد حدّثني فاتك... لكنّي رجلٌ لا يحبّ الحرام. فلو طلّقها بعلها لتزوّجتها.

وغمز ابن أم الحكم الأعرابية غمزةً غامضة. وكان قول الوالي جديراً بأن يقع على فاتك وقوع الصاعقة، فإنّ زواج ابن أم الحكم بسعاد يجعلها عليه أمنع من عُقاب الجو. غير أنّ تلك الغمزة الغامضة ساقت إليه الطمأنينة. فقد فسّرها فاتك بأنّ الوالي غير جادّ، وهل يعقل أن يكون جادّاً؟

وهنا حرّك ابن أم الحكم يده فدسّها في جيبه وأخرج ديناراً من ذهب قذف به الأعرابية، ثم جذب لجام جواده فسار إلى الخيام.

الفصل الخامس

أقبلت سعاد على الحي مهرولةً، ضيّقة الأنفاس، مغسولة الوجه بدموعها، لكنّها اجتهدت أن لا يراها أحد، وانحازت إلى خيمتها حيث قبعت تنتظر عودة نصر إذا أمسى المساء، وفكّرت في ما عساها تقول له، فعزمت على الإفضاء إليه بكلّ شيء. إنّ الحب الصحيح شجاع!.. عزمت على أن تستغفره ثم تطلب إليه أن يغادر الحي في إسراع لأنّ الأمور لن تقف في سيرها عند حدّ.

على أنّ أمها ما لبثت أن تبعتها على الأثر، ودخلت عليها الخيمة تبشّ في وجهها بشاشةً إبليسيةً تتصنّع براءةً ملائكية. قالت لها:

– يا ابنتي، إنّ الوالي لم يتعرّض لك بشيءٍ قبيحٍ أو مهين، ولو تريّثتِ فلم تنفجري هذا الانفجار الجنوني ولم تولّي هاربةً لسمعته يقول لك ما يرضيك. لقد أُعجب بجمالك، وشرفٌ لك أن يُعجب بك رجلٌ تنصاع له الجواري ممّن يُجلبن إلى المدينة، وأجمل النساء ممّن ينعمن في مقاصير دمشق. ولقد كان باستطاعته أن يستغلّ فقرنا وضعفنا ويستعمل سلطانه فينال منك في ساعة ما يشتهيه على أهون سبيل. ومن ذا الذي يمنعك منه؟ أنصر، هذا الرجل الرثّ، أم أبوك، أم

أنا؟ لكنه قال دون أن يسأله سائل: إنّي أكره الحرام، فإذا طلّقها بعلها تزوّجتها حلالاً من الله. ثمّ قذف لي بما لو رأيته لدُهشت. انظري.

وعالجت أم سعاد طرفاً من ثوبها قد عقدته عقداً محكماً، ففكّته عن دينار الذهب الذي راح يشعّ بشعاعٍ أصفرٍ هازئٍ وقحٍ في التحدّي. ثم استطردت تقول:

– إنك لو عقلت، يا ابنتي، لكان لك ما شئت من هذا المعدن الثمين، للبست منه السوار في المعصم والعِقد في العنق، ولأكلت في صحاف منه أطيب ما يؤكل، ولارتديت به الحرير، ونمت به على السرير الوثير. فكّري. إنّ باب الحظ قد انفتح لك على مصراعيه و لم تقرعيه. ثم إنّك لن تُخلّي بحكم من أحكام الناموس. وماذا في أن تطلّقي نصراً أو يطلّقك نصر؟ وماذا في أن تقترني بسواه؟ وجمالك هذا لن يدوم، لكنّ هذه النعمة، إذا استقبلتها، دائمة، تستطيعين أن تغمري بها أبويك، وتغمري نصراً إذا شئت. وقد رأيت الوالي، فهو ما زال في سنّ الرجولة القوية، حسن السمت، بهيّ الوجه.

وكانت سعاد تصغي وكأنّ أمها تخزّ أعصابها وخزاً بإبرٍ حادّة. فلم تتمالك أن صاحت بها:

– اخرجي من خيمتي، أيتها الأفعى، وإلاّ خنقتك... والتهبت عيناها بعزمٍ لا يقف عند حدّ، حتى القتل. فما أسرع ما انسحبت العجوز وهي تدمدم: ويحي، لو سقيت حليبي ذئبةً لكانت أبرّ بي!..

وأخذت تزحف أشباح المساء وسعاد قلقة، مثقلة الصدر، لا تأتي حركةً إلاّ أن تمدّ بنظرها من باب الخيمة لترى هل أطلّ نصر؛ فإذا بها تحسّ اضطراباً وذهاباً وإياباً في الحي على غير المألوف في سائر

الأمسية. ثم إذا بفتىً، يسنده في المشي فتيانٌ عن يمينه وشماله، جرّ قدميه فوقف في الساحة يوشك أن ينهار، واحتشد من حوله الناس. لم تتبيّن وجهه، ولكنها سمعت صوته يئنّ ويستغيث. فخشيت أن يكون هو نصراً قد أصابه شرّ، فخرجت من الخيمة ودخلت في صفوف المحتشدين، فأبصرت مشهداً عجباً – الفتى وقد رفع قميصه وقوّس ظهره الأعجف وطفق يصيح خلال دموعه وشهقاته: انظروا، انظروا ما فعلوا بي! وظهره خضيبٌ بخطوطٍ محتقنة حمراء زرقاء يوشك أن يضّ منها الدم – آثار سياطٍ غليظةٍ ليّنةٍ مرنةٍ ضُربت بها سواعدٌ بطّاشةٌ منتقمة.

عرفت سعاد الفتى. هو سلمان، راعٍ أجير في الحي. هو غير نصر على كلّ حال. وفهمت أنّ هذا الضرب في ظهره إنّما أمر ابن أم الحكم ونفذّه فاتك. وما السبب إلاّ أنّ سلمان طلب أن يورد قطيعه ماء الغدير الذي يخيّم حوله الوالي بجنوده وخيله.

كرهت سعاد من الفتى كثرة نحيبه، فإنّه شيءٌ تنبو عنه الرجولة. لكن لينحب سلمان ما شاء. ليس في الموقف كلّه ما يحمل سعاداً على الطمأنينة. أين نصر؟ أزف موعد إيابه إلى الحي و لم يؤب... وتصوّرته، هو الآخر، يطلب أن يورد قطيعه ماء الغدير، فيأمر بأخذه هذا الجلف الوغد فاتك ويضعه تحت سياطه المشعّبة اللاسعة. يا للفجيعة! كيف تصنع؟

ثم سمعت في كلام الناس حولها: إنّ من خرجوا بالقطعان هذا اليوم لم يرجع منهم أحد بعد، إلاّ هذا الفتى المنكود سلمان، رجع دون القطيع. فلعلّهم ساقوا القطعان إلى ماءٍ بعيد ليوردوها إذ منعهم الوالي

ماء الغدير القريب. فاطمأنّت شيئاً. ولكن هل تخلص لها طمأنينةٌ ونصر لم يعد، وصورةٌ واحدةٌ لا تنفكُّ تراود مخيلتها: صورة ابن عمها تحت سياط فاتك؟

وما أكثر ما تكلم الناس حولها في تلك الدقائق القليلات التي لاحت لها أطول من دهر. منهم من قال: لا حقّ لابن أم الحكم ورجاله أن يمنعونا الماء. سنحتجّ حتى إلى الخليفة معاوية. ومنهم من قال: تهلك مواشينا عطشاً قبل أن يبلغ الاحتجاج دمشق، ثم ما عسى أن تصنع دمشق؟ خيرٌ أن نحتجّ إلى الوالي نفسه. ومنهم من قال: وما جدوى الاحتجاج؟ يجب أن نجليهم عن الماء عنوةً. وهذا النذل فاتك ينسى أنه نشأ في هذا الحي ويتغطرس، فينبغي لنا أن نريه ما قيمته ولو كان جندياً في حرس الأمير. ومنهم من قال: هذا عصيان ربما جرّ علينا الخراب، وابن أم الحكم لن يقيم الدهر كلّه على الغدير، فلا بأس بالصبر أياماً نورد فيها قطعاننا إحدى الآبار البعيدة.

وسعاد شاخصةٌ يقع هذا الكلام في سمعها وكأنه طنينٌ غامضٌ مشوّش يأتيها من موضعٍ سحيق، حتى بدأت تفد القطعان ووراءها رعاتها، وصحّ تقدير مَن قدّر أنهم ساقوها إلى مياهٍ أخرى بعيدة للشرب.

ولمحت سعاد نصراً فانفجرت أساريرها وذهب الثقل عن صدرها. إنها لغبطتها ذهلت، أو كادت تذهل، عمّا وقع لها في نهارها.

ولكنّ نصراً قابلها بابتسامةٍ مغتصبة. كان يبدو على وجهه ألمٌ ممضٌّ أنشب أنيابه في سريرته. أتراه علم شيئاً ممّا حدث لها في يومها، أم أنّ تسييج الوالي على الغدير غمّه هذا الغمّ؟ وتردّدت سعاد لحظةً في ما

يدر منها إذا هما أصبحا داخل الخيمة. تخاذلت أمام العاقبة المحتملة، ثم آبت إلى عزمها أن تنبئه بكلّ شيء.

فما احتواهما سقف الخيمة حتى انطرحت على صدره فطوّقته وشعر بحرارة دموعها على عنقه. وقبل أن يستطيع كلاماً، اندفعت تقصّ عليه في إيجاز. قالت له:

- كنت على حق، يا نصر. إنما قصدت أمي أن تعرض جمالي على الوالي، وصدفت إلى جانب الوالي ذلك الجلف فاتكاً. بلاءٌ على بلاء. فهربت لا ألوي على شيء، فتبعتني العجوز تحدّثني بأنّ الوالي سيتزوّجني إذا أنت طلّقتني، وأرتني ديناراً من ذهب أعطاها إياه، وأظنّه دفعة على حساب... فلنرحل، يا نصر، عن هذا الحي. فلنمضِ. إنّي أشعر أنّ المؤامرة بدأت و لم تنتهِ. أشعر أنّ الفاجعة لا بدّ أن تدركنا إذا لم نستعجل.

قال لها بصوت ينمّ عن الثقة بالنفس وهو يربت على كتفيها يحاول تهدئتها:

- فلنسأل الله أن يلطف بنا.

ولبث هنيهةً لا يجد ما يزيد على هذه الكلمة. فكّر في توبيخ سعاد على مخالفتها رغبته، وعلى وضعها الشفقة في غير موضعها، وكيف جارٍ لها أن تشفق على مثل هذه الأم التاجرة وهذا الأب الضعيف في إرادته وفطنته. إلاّ أنه علم أنّ سعاداً في حاجة إلى الرحمة لا إلى التوبيخ، وعلم أنّ هذا التوبيخ مهما يكن حقاً فلن يجدي فتيلاً، فصرف تيّار نقمته إلى هذه العجوز الملعونة - امرأة عمه. أيقتلها؟ أيقتل الوالي؟ ثمّ ماذا؟ حياة مشردة أو تسمير على خشبة؟ وليس الانتقال عن هذا

الحي إلى سواه بأجدى؛ فإذا أصرّ الوالي، لم يعجزه أن يطلبه في الأحياء كلِّها. ونصر اليوم يرعى القطيع لأحد موسري الحي، وهو موفّق في عمله، ولن ينقضي العام أو العامان حتى يصبح مالك قطيعٍ صغير، فيستقلّ بنفسه ويستغني عن خدمة الناس. فكيف يغادر الحيّ ويترك جهوده كلّها كأن لم تكن؟

وأقام صامتاً يتخبّط ذهنه في هذه الشبكة المعقّدة من الحيرة، وسعاد ما تنفكّ تطوّقه، وقد اطمأنّت إلى قربه اطمئناناً لذيذاً وكفّت دموعها عن الانحدار، فقبّلها قبلةً رقيقةً في جبينها، وأقصاها عنه برفق وهو يقول:

– لا عليك. سنرى ما نصنع... ضعي العشاء.

وأكلا لقيماتٍ في غير ما شهوةٍ إلى الأكل.

والناس في خارج ما انفكّوا محتشدين تتأدّى أصداء أحاديثهم في هدأة الليل إلى داخل الخيمة، فتردّ نصراً إلى هذا الحادث العام الذي أمسى شغل أهل الحي لا شغل لهم إلاّه. فقد حرم ابن أم الحكم وُرود ماء الغدير، وقد أمر بجلد أحد الرعيان جلداً وحشيّاً نفّذه هذا النذل فاتك... سألته سعاد وكأنّما تقرأ أفكاره وهي تدفع في حلقها غضباً بآخر لقمة:

– هل سمعت، يا نصر، بما أصاب اليوم هذا الراعي المسكين سلمان؟

قال لها بصوتٍ جاف:

– نعم سمعت وكنت شاهداً. لقد تقدّم في طليعتنا عند غروب الشمس بطلب ورود الماء بقطيعه، فتصدّى له فاتك وهو يقوم على

حراسة المخيم، فصاح به: لا ماء! عد من حيث أتيت. ولوّح في وجهه بسوطه المشعّب الأطراف. قال سلمان: ولكنّ الغدير لأهل هذا الحي، ولا بدّ للقطعان من شرب. انتهره فاتك وصوته يزداد ارتفاعاً وغلظة: إنما أمر الوالي أن لا يرد أحدٌ هذا الغدير قبل أن تنتهي أيام صيده في هذه الناحية. إنكم إذا وردتموه بمواشيكم فلن تصدروا عنه إلاّ وقد جوي الماء، ويجب أن يبقى الماء صافياً نظيفاً لمولانا الوالي. قال سلمان: إذاً، تهلك مواشينا. فالماء الآخر شاسع عنّا، إذا سقنا إليه قطعاننا رجعت عطشى لطول المسافة. ولا يمكن أن يكون الوالي أمرَ بهذا الأمر، وأنت، يا فاتك، من أبناء حيّنا، فهل يليق أن تأخذنا بهذه المعاملة الصلفة؟

قال له فاتك وفي صوته نبرةٌ من نباح الكلب العضوض: انتظر يا هذا حتى أريك ما أمر به الوالي إذا عاند أحدكم أو أعجبته فصاحته في الجدال. انتظر حتى أريك ما تكون معاملتي الصلفة. ونادى بجنديين، فأسرعا بسحنةٍ متجهّمة، فبطحا سلمان أرضاً ورفعا القميص عن ظهره البارز الأضلاع؛ فأنشأ يبكي ويصيح حين فهم ما يُراد به. وتقدّم فاتك فجعل يرفع سوطه على مدى ما تمتدّ يمينه، ثم يردّ السوط فيهوي صافراً فاحّاً فحيح الحيّة على ظهر المسكين وهو يستنجد بنا ويستغيث. لكن أخذنا الوجوم جميعاً للمفاجأة، فلم نرَ ما نصنعه إلاّ أن نضمّ قطيعه إلى قطعاننا ونقصد الماء الآخر البعيد. وقد لبثت الوقت كلّه أُفكّر في هذا الوجوم الذي جثم علينا وهذا الموقف المخذول الذي وقفناه. وكان رأي رفاقي من رأيي، على أننا اتفقنا أن ننتظر قرار أهل الحي، وسأخرج الساعة إلى الناس فأرى ما صحّت عليه عزائمهم.

ونهض نصر واتّجه إلى باب الخيمة، فنهضت في أثره سعاد وأمسكت بكمّ عباءته تتوسّل إليه أن لا يعرّض نفسه.

قال لها وقد جمدت عيناه على عينيها الضارعتين:

- سنرى. نامي، يا حبيبتي... وقبّلها في الفم قبلةً خفيفة ومضى، فتبعه صدىً ناحبٌ يدعوه: توقَّ، يا نصر.

وطال حديث أهل الحي وأخذهم وردّهم في القضية، واقترح الشيوخ، أصحاب القطعان الكبيرة، تأجيل القرار، وانصرفوا إلى النوم.

وبقي نصر ونفرٌ من الفتيان قرّروا أن لا ينبغي لهم أن يبيتوا ليلتهم على ضيم.

ومشى نصر إلى خيمته مطمئنّاً إلى القرار. شيءٌ واحد ظلّ يقلقه. أتكون سعاد مفيقة؟ إنها قد تثني عزمه، فإذا أقدم على العمل كان إقدامه بقلبٍ ثقيل. ودخل الخيمة على رؤوس أصابعه كأنه شبحٌ سارقٌ يتسلّل؛ فسمع أنفاساً تتصاعد ناعمةً رقيقة. سعاد تنام!.. أرادت أن تبقى مفتوحة العينين، ولكنّ العناء وزحف الليل غلباها على إرادتها.

- نامي، نامي. سأعود. قال لها بهمسٍ خيفضٍ رقيقٍ كأنفاسها.

ومضى وئيداً إلى موضع قوسه ونشابه، تحخظ عيناه متلمّستين في الظلمة، وتناول القوس والنشاب، ثم تمهّل هنيهةً يتأمّل هذا المحيّا الوادع، محيّا زوجته، في هدوء الرقاد، واشتهى أن يطبع على جبينها قبلةً يتزوّدها زاداً. فمن يعلم ما يحدث؟ لكنّه بدل أن يفعل، حوّل وجهه نحو باب الخيمة ولحق برفاقه.

وقال سلمان الذي أكلت السياط ظهره في ذلك اليوم:

- أعازمون أنتم؟

أجابوه: وهل ترتاب؟ إنّ في سؤالك نبرة من تردد.

وقال وهو يوشك أن يجهش بالبكاء: إنني مهدود الجسم اليوم. لو انتظرنا ما يقرّره الشيوخ في غد.

قال نصر: كان يجب أن يزيدك ما لقيت اليوم قوةً. امكث ولا تطلب الأعذار.

قال سلمان بصوت أشبه بالمواء: اعذروني. أكاد، أيها الرفاق، أتمدّد أرضاً فأدفن وجهي في الرمل خجلاً منكم.

أجابه نصر: كلا! لا تفعل هذا بوجهك، لكن اغرب به عنّا.

وانفتل ماضياً في طريقه، وجدّ في أثره سائر رفاقه.

كلّ شيء مجلببٌ بالصمت في هذا الحيِّ المكتوم في جوف الصحراء. ما من نأمة في كلّ ذلك المدى الفسيح من الدنيا حولهم وأمامهم. السماء أيضاً خرساء بكماء. نجومٌ وكواكب محايدة في عزلتها الرفيعة القصية، لا صلة لها بالعالم السفلي إلاّ هذه الأشعة المبهوتة التي لا تعطي خبراً ولا تأخذ.

حتى هذه الحفنة من الفتيان تمشي موغلةً في الصمت، ينسحق الرمل تحت أقدامها في شبه صوتٍ متوجّع أبحِّ مقطوع الصدى، وتنبض قلوبها منفعلةً ولكن في اتِّزانٍ، متّحدةً كجوقةٍ تعزف الألحان ولكن في كتمانٍ عميق الغور.

وأشرف الفتيان على مخيّم ابن أم الحكم. هنا أيضاً سكونٌ ناشرٌ جناحيه، وهنا لوحةٌ مبهمةٌ على البعد لا تبين تفاصيلها. وجحظ الفتيان جميعاً بأعينهم يستوضحون اللوحة، ورفع نصر عينيه إلى

الأعالي كأنه يسأل النجوم أن تقوّي حبال نورها على الأرض، ثم انبطح على أضلاع صدره يزحف إلى أقرب فأقرب من المخيم، وفعل فعله الفتيان.

اكتظّ رأسه بالأفكار... هذه قوسه ومعها النشاب. تذكّر أنّه صرع بها ذئباً، ووعد يوماً بأن يفلق بها قلب فاتك؛ فهل ما زال فاتك على حراسة المخيّم؟ وأحسّ في صدره بغبطةٍ وحشيّة. ولو رأى عينيه ساعتئذٍ في مرآة لهاله كيف تتوهّجان في الظلام. لكن ربما نبحت كلبةٌ فأفسدت كلّ شيء. يجب أن يكتم حتى أنفاسه المتسارعة.

ها هي اللوحة، لوحة المخيّم، تصبح لديه أكثر وضوحاً، وعلى باب المخيّم شبحٌ يذهب ويجيء وظلّه ينسحب مديداً أدكن اللون على الرمل المتّشح بالضوء. أترى يكون هذا الشبح فاتكاً هو إيّاه؟ إنّ عدلَ الأقدار يكون خرافةً إن كان لحم هذا الشبح ودمه رجلاً غير فاتك.

ورفع نصر صدره شيئاً عن الأرض، وركّب السهم في قوسه وركّزها على كتفه، ثم أقفل عيناً وضاقت عينه الأخرى في تصويبةٍ محكمة، وشدّ الوتر يختبر متانته. إنّه صامدٌ وثيق؛ فشدّه هذه المرّة بجماع ما في ساعديه من عزم. وكانت القوس نصف دائرة فتحوّلت بين يديه، بقوة الشدّ، إلى بيضةٍ عظيمة... لحظة... تُرى، هل تمضي هذه النشّابة برأسها المحدّد المسنون إلى حيث يرسلها - إلى تلك النقطة، نقطة القلب من ذلك الشبح؟ لا ريب! لا ريب! يستحيل أن تخونه يده وعينه في الرماية اليوم.

وانفلتت الأصابع التي كانت منضمّةً على الوتر وأسفل النشابة انضمام الكلاّبة من فولاذ، وانطلق السهم يفحّ في الهواء. وفي تلك

الدقيقة التي حنّت القوس واختلجت كمن تحرّر من جهد جهيد، هوى الشبح يخبط الأرض بثقل بدنٍ هامد لم تصعد منه إلاّ صرخة توجّعٍ بُترت بتراً بمفاجأة الموت.

صرف نصر وجهه عن المخيم ودار، مبطوحاً أرضاً، صوب الحي. واقتدى به رفاقه، ثم طفقوا يدبّون جميعاً مسرعين على الأيدي والركب. خيّل لهم أنّ كلاباً انفجرت بنباح، وأنّ مخيّم الوالي بات يعجّ بالحركة، وأنّ الخيل تحفر الرمل بحوافرها خبّاً في أثرهم. لكن كلا. يا لمبالغات الوهم! فما انفكت السكينة رابضةً مع الليل ربوضها الأول.

ومضى كلٌّ من الفتيان لسبيله ساعة بلغوا الحي بعد أن تمهّلوا ريثما أقسموا أن تكون صدورهم قبراً عميقاً للسرّ الخطير.

وقالت سعاد لنصر إذ دخل الخيمة بوطءٍ على رؤوس أصابعه تكاد لا تحسّه الأرض:

– أين كنت حتى الساعة؟

قال لها، وأسرع ذهنه إلى حيلةٍ فمضى على الأثر في ظلام الخيمة لوضع قوسه ونشّابه في الزاوية:

– ألم تنامي بعد؟

أجابته: نمت ثم أفقت فتلمّستك إلى جانبي فلم أجدك.

قال: أطلنا السهر ونحن في حديث ابن أم الحكم وما يجب علينا أن نفعل.

ودنا فاضطجع إلى جانبها ومسح على جبينها بيدٍ رقيقة، ثمّ أغمض عينيه متناوماً.

قالت له وقد أدارت رأسها فحطّت عينيها على وجهه:

- أجل، نم يا نصر. إنّي ألمح من خلال سُجف الظلام عناءً شديداً منطبعاً في قسماتك.

... مع الصباح الباكر، هجم على الحيِّ نفرٌ من فرسان ابن أم الحكم مرغين مزبدين شاتمين تقدح عيونهم الشرر. لقد وُجد الحارس، الذي كان يخفر مخيم الوالي ليلاً، مفلوق القلب بسهم شديد، والقرائن توقع الشبهة على أهل هذا الحي. فأمس اتّفق للحارس القتيل أن جلد راعياً من رعاة الحي لأنه أصرّ - مخالفةً لأمر الوالي - أن يورد قطيعه ماء الغدير الذي ضُرب حوله المخيّم، وفي الطريق بين المخيّم والحيِّ آثارُ أرجلٍ لم يمضِ عليها وقت، وآثارُ دبيبٍ وأبدانٍ سحبت نفسها على الرمل سحباً.

وقد طاف الفرسان بالحيِّ شارعين سيوفهم، وأهل الحي منزوون جميعاً صامتون على هلع وغيظ - إلاّ الصبية الصغار لبثوا في طراوة الصباح يتواثبون فرحاً ويغرّدون ضحكاً. أعجبتهم ألبسة الفرسان وسيوفهم وخيولهم، حتى إذا أدركوا الحقيقة جمدت الحركة في مفاصلهم واختنقت ضحكاتهم وقسا البريق في نظراتهم، ثم حادوا يجمعون الحجارة بتلك البساطة الطفولية التي لا تهوّل على صاحبها بقوة عدو.

وألحّ الفرسان في طلب هذا الفتى الزري الذي جلده فاتك أمس، وإنّهم ليتذكّرون وجهه جليّاً فقد شهدوه، ولا بدّ أن تكون آثار السياط ما زالت باديةً في لحمه. فلم يصعب عليهم أن يجدوه. ذلك أنّ الخوف سمّر سلمان في وكره تسميراً فوقع فريسةً سهلةً رخيصة، وساقوه سوق غنمةٍ ذليلة، يتحدّون به أهل الحي ذلك التحدّي الفاجر الذي

يجيده "عملاء" السلطة الغاشمة حين لا يقاومهم الشعب. فكأنّ هؤلاء "العملاء" الذين يقومون بدور العبد النذل، لدى السلطة الغاشمة، يرون لذةً وترضيةً في أن يقوموا بدور السيد المتغطرس أمام الشعب المسكين.

على أنّ فرسان ابن أم الحكم لم يخرجوا من هذه الزيارة يومئذٍ إلاّ بوداعٍ لائق. فإنّ صبية الحي زوّدوهم بكلّ ما استطاعوا أن يجمعوا من حجارةٍ وبعر جمال، وبكلّ ما استطاعوا أن يحفظوا من قاموس الشتائم.

وفُهم في الحي أنّ فاتكاً قد لقي مصرعه، فلم يجد أحدٌ سبباً للحزن عليه سوى أهله. بلى، تظاهر بالحزن أولئك الذين خافوا انتقام الوالي من الحيِّ كله، وتمنّوا أن يُفتدى الأمرُ كلُّه بالراعي المسكين.

أما نصر فارتدى وجهه قناعاً حجرياً جامداً ساعة تفرّست فيه سعاد تفرّساً ذا مغزى وهي تسأله:

– هل كتمت عنّي شيئاً في الليلة البارحة، يا نصر؟

فأجابها في غير اكتراث:

– اختصرت لكِ الحديث لأنني كنت تعباً جداً. والآن يجب أن أخرج بالقطيع.

فسكتت سعاد لا تحير، ثم انهمكت في بعض شؤون "البيت". وفطن نصر إلى أمرٍ فاغتنم غفلة سعاد، فأخذ بقية سهامه، فدسّها تحت عباءته ليدفنها في موضعٍ خفيٍّ بعيدٍ عن العيون التي يمكن أن تقارن بينها وبين هذا السهم الذي صرع به فاتكاً، ثم ساق قطيعه إلى المرعى على مألوف عادته.

وفي المرعى فكّر نصر في حاله. إنّ ثقته بأصحابه لا تحتمل الوهن أو الضعف، لكن لم يكن سلمان، هذا الفتى الرخو الفِقار، في الحسبان. لقد جرّه جنود الوالي وسيلصقون به التهمة ويعَذّبونه ويهدّدونه بالقتل، فلا يترك عندئذٍ شيئاً يعلمه إلاّ قاله. وهو يعلم بخروجهم في الليلة البارحة إلى المخيّم، ويعلم بقصدهم. يا للورطة الخبيثة! فما جال في خلده أنّ القضية ستدور هذا المدار.

لكن فليكن. ما العمل؟ سوف يترقّب. حتى إذا شمّ الخطر نجا، ومعه سعاد. وفي الصحراء متّسعٌ عريض، وفيها كثير أشباهه من المتمرّدين المشرّدين، أو جماعة الخوارج، يعيشون مفترشي التراب، ملتحفي السماء، معانقي السيوف.

الفصل السادس

كانت أم سعاد في ذلك اليوم قد بكّرت إلى مخيّم الوالي بكوراً عظيماً، بل ذهبت تحت ستر الهزيع الأخير من الليل، غير عارفةٍ بشيءٍ ممّا حدث أو يحدث، تريد أن تلقى الوالي قبل أن ينطلق إلى الصيد في مبزغ الفجر.

فلما أشرفت على الخيام شاهدت في الغَلَس شبحَ حارسٍ يذرع الأرض جيئةً وذهاباً في خطواتٍ عصبية، فتمنّت لو يكون هو فاتكاً فيُسهّل لها أمرها. لكن لم يلبث أن راعها نفرٌ من الفرسان يخرجون من المخيّم فيلكزون جيادهم مسرعين نحو الحي الذي أقبلت منه، فأوجست خيفةً وتنحّت عن طريقهم إلى مخبأ توارت فيه حتى عبروا تتبعهم غمّامةٌ من غبار، ثم عادت تدلف نحو المخيم، ففطن لها الحارس، فوقف ينتظر دنوّ هذه العجوز الأعرابية الغريبة التي تقصد خيام الوالي في مثل هذه الساعة بعد الذي حدث في الليلة الفائتة.

قالت له بعد أن دنت فألقت تحية الصباح: تلطّف، يا جندي فأجبني، هل أفاق الأمير؟

فاقتحمها الحارس بنظرةٍ فيها غلظة وجفاء، ثم قال لها:

– ما أوقحكم أهل هذا الحي. يشرّفكم الأمير بنصب مخيّمه في جواركم فتغتالون حارس المخيم ليلاً، ثم تفد عجائزكم مع الصباح الباكر يطلبن الصدقات؟ وإلاّ فماذا يطلبن؟ أليس للأمير أن ينام حتى تأتيه في مثل هذه الساعة وفي مثل هذا اليوم الذي جعلتموه مشؤوماً؟ انصرفي!

أجابته بعد أن وقف ذهنها في تأمّل هذه الأنباء التي كشف لها عنها:

– كلا! لست طالبة صدقة كما تظنّ، ولا علم لي بما حدث في مخيّمكم، ولكنّ لي شغلاً عند سيدي الوالي.

ثم تشجّعت فقالت له رافعةً صوتها كالمنتهرة:

– امضِ فقل لسيّدنا الأمير: الأعرابية التي لقيتك هي وابنتها نهار أمس واقفة بالباب تلتمس مقابلتك لشأنٍ يهمّك.

فتردّد الحارس لحظةً. ربما كان لهذه العجوز نبأ تفضي به إلى الوالي – نبأ يتّصل بحادثة الليلة الماضية. وزادت أم سعاد في إلحاحها عليه. وعدته بالمكافأة من الوالي، وهدّدته بالعقوبة إذا هو ردّها. فما لبث أن دار على عقبيه فمضى يسعى في تسهيل أمرها، ثم عاد مسرعاً فقال لها: ادخلي يا خالة. وفي صوته نبرة تهيّب. لقد وجد ابن أم الحكم مستيقظاً، فحين سمع الأمير بخبر العجوز أمره أن يأتي بها دونما إبطاء. إنّ مصرع حارسٍ من حرّاسه شيءٌ لا يحول دون الهموم الأخرى...

وحيّت أم سعاد ابن أم الحكم تحية تعظيم بليغة، فيما الحارس ينسحب.

فقال لها ابن أم الحكم وبطنه مرتجٌّ وخدّاه منتفخان محتقنان:

- إنكم أهل هذا الحي خبثاء لا ترعون جواراً ولا قربى. ما كدت أضرب خيامي على غديركم هذا حتى وجدت فاتكاً - وهو واحدٌ من حرّاسي وابنٌ من أبناء حيّكم - مفلوق القلب بسهمٍ عند باب المخيّم.

قالت العجوز كالتي فوجئت: وهل صُرع فاتك؟ رحمة الله عليه. ثم خشيت أن يجدّ الوالي في حزنه على الحارس الصريع فيحول ذلك دون دخولها فوراً في موضوعها، فسعت في تلطيف وقع الحادثة واستأنفت تقول: لكن هل تدري، يا سيدي الأمير، أنّ فاتكاً هذا كان يطمع في سعاد؟ لقد ذهب في سبيله فليذهب.

قال الوالي: أوحقٌّ ما تقولين؟ وطافت بذهنه، حين ذُكرت سعاد، صورة المرأة الصبيّة الممتلئة قوةً وجمالاً وفتنةً وإغراءً؛ فتابع كلامه للعجوز: حدّثيني، هل وُفّقت في المهمّة؟

أجابته: أوفّق إن شاء الله وشاء الأمير أن يساعدني في بعض الأمر.

- ماذا؟ ألا ترضى بنتك بطلاق صعلوكٍ لتتزوّج والياً؟ ألا يرضى صعلوكٌ بطلاق امرأته ليتزوجها والٍ؟ لعلّك لم تطمّعيها بما سأبذل لهما من مال؟

- ولكن ليست هذه بالسبيل التي تنجع. بقيَ أن تستعمل سلطانك يا مولاي، فتأخذ بالشدّة حيث لم ينفع اللين.

- ويحك! ألم تفهمي أنّي رجلٌ لا يحبّ الحرام؟

- معاذ الله أن أدعوك، يا سيدي، إلى الحرام والبنت بنتي.

وخفضت العجوز صوتها إلى مثل الهمس وهي تقول: لكنّي أدلك على طريق... إنّ زوج سعاد يرعى القطيع لبعض موسري الحيّ عندنا.

يخرج بالقطيع كلّ يوم، فلا بدّ أن يسرح به اليوم في هذه النواحي أو في قريبٍ منها.

قال الوالي: ثمّ ماذا؟

أجابته: فأسهل شيءٍ، إذن، أن يلقاه رجالك فيركّبوا عليه ذنباً تأخذه به فتسجنه. وأين لسعاد عندئذ من يقوم بنفقتها؟ فلا يكون لها بدّ من أن ترضى بطلاقه خوف الهلاك جوعاً، أو يخضع هو لطلاقها إذا وعدته بإطلاقه من السجن أو أغريته بإغراءٍ آخر. فإن عاند هو أو عاندت هي، جاز لي أن أتقدّم إليك بدعوى الفصل بينهما حرصاً على حياة ابنتي أن تهلك جوعاً بانتظار زوجٍ اقترف ذنباً، فسجنه الوالي فعجز عن أداء النفقة لامرأته.

فأطرق ابن أم الحكم هنيهةً يمشّط لحيته بأصابعه ويفكّر، ثم قال لها كالمداعب:

– لعنك الله من خبيثةٍ ماكرة!.. ما اسم صهرك؟

– نصر.

– انصرفي الآن.

فتحرّكت في تثاقل. كانت تريد أن تعلم هل وافق الوالي على ما رسمت له من خطّة، غير أنه لم يزدها حرفاً على ما قال، فتشاءمت، ثم تفاءلت لمّا قذفها بدينارٍ من ذهب أتبعه ابتسامةً ذات مغزى.

وفيما العجوز تدير ظهرها منصرفةً قابضةً بأصابعها الجافّة الخشبية على الدينار، إذا بالحارس يدخل على ابن أم الحكم معلناً له قدوم وفدٍ من كبراء بني عذرة يريد مقابلته. فاغتنمت أم سعاد فرصةً خرجت فيها مستعجلةً لئلاّ يُذكّرها الحارس بما وعدته به من مكافأة!

ثم كان المساء، فطلع على الحيّ فارسان يسوقان قطيعاً من الماشية ثقيل الخطى مسترخي الآذان، والفارسان يعتزّان بأنهما من رجال الوالي، وأنّ الوالي اعتقل ذلك اليوم بدويّاً اسمه نصر كان يرعى هذا القطيع، لأنه نفّر الطرائد مراراً وعكّر الصيد على الأمير. وأضاف الفارسان: ثم قد كلّفنا الأمير أن ننادي بأهل هذا الحيّ أنه سينحي المخيّم عن غديرهم غداً، فتستطيع قطعانهم أن ترد الماء، لكنه لم يفعل ذلك إلاّ كرماً منه وتطييباً لخواطر الكبراء الذين زاروه ملتمّسين. فلا قسيّكم تخيفه ولا نشّابة إن كان منكم مجنونٌ يفكّر في استعمالها. ولقد استوثق الأمير أنّ مصرع فاتك إنّما كان بنزوةٍ من شيطان ذلك الراعي القصير العمر الذي أراد أن يثأر للسياط التي أكلت ظهره ساعة عاند في ورود الماء، وسيلقى الفتى جزاءه قتلاً بقتل. هذا مصير المعتدي. أُعذر من أنذر!

وقفل الفارسان بعد أن تركا القطيع في الحيّ يتسلمّه صاحبه.

وبلغ سعاداً نبأ اعتقال نصر وسببه. عرفت ذلك من صبيٍّ أقبل واجماً على خيمتها يسوق ما كان لنصر من غنيمات ذابلة العيون كئيبة المنظر كأنّما شعرت بما وقع لصاحبها. فصُعقت سعاد لا تدري كيف تستقبل المُصاب... حقّاً إنّ لها بعض عزاءٍ في أنّ التهمة ليست خطيرة بقدر ما كان يُحتمل أن تكون في مثل هذه الملابسات. لكنّ نصراً قد بات، مع ذلك، سجيناً، لا تعلم مدى ما يحلّ به من اضطهاد. فكيف يُسجن نصر؟ وما تفعل هي؟ وعلامَ يُسجن نصر؟ فهل حقّاً أنّه نفّر الطرائد؟ وهمّت بالبكاء مضعضعةً مشلولةً منهارة.

لكن لأمرٍ ما، أومض بغتةً في ذهنها أنّ أمّها يستحيل أن تكون

بريئةً من هذا الفخّ الذي دُفع إليه ابن عمها. فتمالكت بقوّةٍ عاصفةٍ من غضبٍ ثارت فجأةً في صدرها، و لم تسل لها دمعة.

حدّثتها نفسها بأن تهاجم أمها فتمزّقها بأظفارها وأسنانها، واندفعت إلى خيمة والديها كأنّها محمومةٌ في إعصار. فلم تجد إلاّ أباها الشيخ مستغرقاً في ذهولٍ وشحوب، ترشح عيناه العمشاوان. أجابها لمّا صرخت به تسأله عن أمها: والله لا أدري أين هي الشريرة؟ وانفجرت دموعه حين علقت عيناه بعيني ابنته المضطرمتين، فلم تملك سعاد أن تجيبه بالبكاء والشهيق. كانت على وشك أن تختنق لولا ما أرسلت من هذه الدموع الغِزار الحِرار.

ثم أمسكت نفسها لعلمها أنَّ ذلك لا يجدي، و لم تقل لأبيها شيئاً، لأنها رأت سدىً أن تستشيره بعد الذي ثبت لها من عجزه عن الرأي.

... ذهب بها التفكير إلى الشيخ سالم، وهو الذي يتولّى نصر رعاية قطعانه أكثر الأيام. شيخٌ طيّب القلب نافذ الكلمة، يحبّ نصراً على ما تسمع. فإذا استعانت به فقد يغيثها، وقد يلتمس لنصر منفذ خلاص. و لم تكن سعاد تعرف هذا الشيخ الوقور إلاّ من بعد، وبينها وبينه مسافات في العمر، لكنّها استجمعت شجاعةً فقامت تطلب منزله. وأذن لها بالدخول إلى خيمته. فلمّا علم الشيخ سالم أنّها امرأة نصر بشّ بها وأظهر لها الرأفة. فارتبكت كيف تبدأ الكلام، ثم أمسكت بخيط الحديث من أوله، فراحت تقصّ على الشيخ قصتها، كيف تزوّجت نصراً على حبٍّ وهيام، وأمها تريد أن تستغلّ جمالها فتزوِّجها غنيّاً يدفع لها مهراً عظيماً، ثم كيف استدرجتها إلى لقاء الوالي الذي رغب

في زواجها إذا طلّقها نصر، ثم كيف انتهى نصر إلى السجن بمكيدةٍ هي لا ريب من صنع أمها وموافقة الوالي.

والشيخ يصغي بعطفٍ إلى قصّةٍ عرفها وسمعها من قبل مراراً، حتى جاء ذكر الوالي على شفتي هذه الصبية الجميلة العاثرة الحظ. فبدا على وجهه امتقاع، وقال لها وقد قبض على لحيته وطأطأ جبهته العريضة والعقدة بين حاجبيه:

– يا هذه، إنّك تتّهمين الوالي بأمرٍ لا يليق، وما أراك على حق. فنصر على ما سمعنا قد نفّر طرائد الصيد من طريق الوالي، ومهما يكن من شيء فإنّي لا أقبل الدخول في شأنٍ أعارض فيه إرادة أميرنا، فامضي إليه واسترحميه.

فأحسّت سعاد بريحٍ جافّةٍ لاهبةٍ تلفحها لفحاً، فتيبّس نبتُ الرجاء الذي كان قد شرع ينبت في صدرها، ونهضت متثاقلةً مسحوقة النفس. وقبل أن تنصرف فطنت إلى شيءٍ، فقالت له:

– لو اشتريت منّي غنمات نصر فضممتها إلى قطعانك يا شيخ، فأنا في حاجة إلى ما أنفق.

فأجابها: حبّاً وكرامة... ونهض في بطءٍ وأناة، فأخرج لها بعض دراهم، ثم أردف يقول: جيئي بالغنمات أو احفظيها لا فرق، ولن أتركك للجوع يا بنيّة.

حقاً كان الشيخ سالم صاحب مروءة، لكن كانت تقف به مروءته كلّما رأى خطر الاصطدام بالسلطان. فشكرت له سعاد صنيعه، ووعدته بتعجيل الغنمات إليه، وانطلقت كاسفة البال، منكسرة النفس.

ولم تدرِ تلك الليلة، وهي تتقلب في خيمتها، هل قضت ليلةً واحدة أم زحف عليها دهرٌ بكامله.

وخالت الصباح سيحمل لها فرَجاً أو يفتح لها سبيلاً إلى الفرج! لكنّها سرعان ما تبيّنت أنها كانت ضحيّة وَهمٍ دفعتها إليه السذاجة فأسفر عن خيبة مرة.

الفصل السابع

كان نصر، ساعة طلع عليه نفرٌ من فرسان الوالي، واقفاً بمفرده ينظر في الآفاق حوله ويجتهد في أن يتبيّن الساعة التي بلغها النهار بعد أن اصفرّت أشعة الشمس ومسحت الأرض مسحةً ذهبيّة.

وبرغم أنه بوغت باقتراب الجنوب على الخيل، وازدحمت في رأسه الأفكار المثيرة، وتمنّى لو لم يدفن قوسه ونشّابه، فإنّ وجوه الفرسان لم تنذره بالشرّ، وعلى الأخصّ بعد أن حيّاه قائدهم متلطّفاً وقال له:

- أرى من طول نظرك إلى الآفاق أنك تترقّب شيئاً، يا أعرابي.

أجابه نصر:

- كلا، لست أترقّب شيئاً، ولكنّي أتبيّن كم بقي من عمر النهار؛ فلا بدّ من ورود الماء البعيد بعد أن منعتمونا ماءنا الذي خيّمتم عليه، ثم لا بدّ من العودة إلى الحي قبل اشتداد الظلام، وإلا شُغل بال أهلنا.

قال له القائد مستمرّاً في تلطّفه لخطّةٍ كان يرتئيها في سياسة هؤلاء الأعراب النزقين حتى يتمكن منهم:

- ولكن سمعنا أنّ مولانا الوالي عاد اليوم فعزم على أن يأذن لكم بورود هذا الغدير القريب. فهيّا بقطيعك سر معنا.

فما أعجبت نصراً هذه الخدمة الفورية التي تطوّع لها هذا القائد ومن معه من فرسان ابن أم الحكم. فقال وهو ينظر في وجه القائد نظرة مستريب:

– بشّرتني بخير. على أنّي أوثر أن يبقى قطيعي في مرعاه يقضم العشب، فما زالت في النهار بقيّة.

ولكن الفرسان انتشروا محيطين بالقطيع، فجمعوه، وقال القائد لنصر بنبرةٍ لا تلطّف فيها هذه المرة:

– سِق قطيعك يا أعرابي، وامشِ به أمامنا إلى المخيّم.

ففهم نصر أنّه غير مخيّر في الذهاب والبقاء، وأحبّ على الفور أن يعرف سبب هذا الإكراه فيعلم أيّ موقفٍ هذا الذي يواجهه، وأيّ مصيرٍ هذا الذي يتوقّعه، فقال محتداً:

– ولكن علامَ تُكرهونني على المضيّ بقطيعي إلى الغدير؟ لعلّي لا أريد.

قال له القائد:

– وكيف تريد، وأنت أدرى بما فعلت؟

وإذن، فهذا الوغد سلمان قد خان السرّ فأسلمهم جميعاً إلى انتقام ابن أم الحكم. كذلك فكّر نصر، وعزم على أن يحمل التبعة التي تقع عليه في غير ما طلبٍ أو انتظارٍ للرأفة.

وهنا ارتفع عليه صوت القائد يقول:

– أراك سكتَّ كأنّك تقرّ بذنبك.

– وأيّ ذنب؟ لا حصر للذنوب التي يمكن أن يرتكبها امرؤ حين يقنط من عدالة الحاكمين.

– ولذلك لبثت اليوم نهارك تنفّر طرائد الصيد من طريق مولانا الوالي.

وعجّل القائد على جواده حتى حاذى نصراً فناله بسوطٍ من كتفه إلى خصره المقابل، فلم يحسّ بألم الضربة وإن هو سمع صدى صفقة السوط كأنها آتية من بعيد. لقد كان مغتبطاً بأنّ التهمة التي وُجِّهت إليه لم تكن تلك التي يخشاها.

فصاح به القائد مغضباً:

– ويكَ! تتجاهل سوطي ذهاباً بنفسك مع الكبرياء! رويدك حتى نصل إلى المخيّم فترى كيف أنضج جلدك.

أجابه نصر:

– وعلامَ غضبك؟ إنّي أجتهد أن أتذكّر في أيِّ منامٍ نفّرتُ طرائد الوالي.

قال له القائد مرعداً:

– وتتهكّم يا أعرابي السوء.

فزمّ نصر شفتيه ما ينبس، وفكّر في سعاد ساعة يأتيها نبأ هذا البلاء الذي حلّ به، فتألّم لها بأكثر مما تألّم لنفسه، وعصر قلبه حنينٌ مرهق...

ولقد برّ القائد بوعيده ساعة الوصول إلى المخيّم. أمر بأن تُشدّ يدا نصر ورجلاه، ويُطرح على وجهه أرضاً ويُرفع عنه القميص. ثم راح يُنضج جلده بالسوط في يده، وهو لا ينتظر شيئاً، كأن يشنّف أذنيه بالإصغاء إلى صوت هذا الأعرابي يتوجّع ويسترحم ويبكي وينهار. و لم تكن بين نصر والقائد عداوةٌ سلفت فيتشفّى به مثل هذا التشفّي، ولكنه اعتبر إهانةً له أن لا يموء الرجال بين يديه، تحت سوطه، كالقطط.

فماذا يقول عنه الجنود إذا هو لم يستطع، بكلّ ضربةٍ من سوطه، أن ينتزع صرخة ألم ممزّقٍ من أعرابي؟ بل ماذا يقول عنه ابن أم الحكم وقد أمره أن يُرهب هذا الأعرابي ويكسر نفسه كسراً؟

على أنّ نصراً آثر أن ينشب أسنانه في التراب ويعضّ الأرض فلا يصيح، وأمسك ببدنه أن يتلوى تحت سوط هذا الرجل الذي بات، لشدّة الغيظ وبذل الجهد، يتصبّب عرقاً ويلهث كأنه هو المضروب لا الضارب.

وأخيراً ركل القائد نصراً برجله، ورمى بالسوط بعيداً كمن يئس من مستحيل، وقال لبعض الجنود وهو يفتل شاربيه بحركةٍ عصبيّة كأنه ينتفهما:

– انقلوا هذا الكلب الذي جلده جلد تمساح إلى خيمةٍ فاسجنوه فيها حتى يرى مولانا الوالي رأيه فيه.

فدنا الجنود من نصر فرفعوه، فجعل يتفّ من فمه التراب، و لم ينطق بكلمة إلاّ حين أراد جنديٌّ أن يردّ قميصه على ظهره، فقال له:

– بل اتركني مكشوف الظهر، لا يعلق بقميصي ما لا بدّ أن يكون نزّ من دمي.

فأطاعه الجندي وهو ممتلئٌ إعجاباً بتجلّد هذا الفتى وكبريائه على الألم.

لكن لا شك أنّ ما عصف في نفس نصر من الألم المعنوي خفّف عنه نهشة الألم البدني.

وتشاور الجنود فيما بينهم سرّاً، بعد أن حملوا نصراً إلى خيمة سجنه فألقوه أرضاً، مبطوحاً على وجهه. ثم خفّ أحدهم فجاء بدهنٍ دهنوا

به ظهر نصر، فأطفأوا عنه بعض ما أخذ يحسّه من حريق إذ بردت عليه آثار السياط.

وقال له أحدهم حين رأى سحنته تتقلّص بنوبات المضض الشديد:

– لا عليك، فإنّك لن تلبث بضع ساعات حتى تستريح على هذا الدهن، فكأنّ الذي كان لم يكن.

وبقي نصر مبطوحاً على وجهه أرضاً، في الخيمة، يتململ منفرداً ويتعذّب، لا بما ناله من بلاء بل بعجزه أن يركّز أفكاره على قرار. فقد اجتاح ذهنه تشويش غريب. فما معنى أن يأخذه جنود الوالي هذا الأخذ العنيف بتهمة ملفّقة كلّ التلفيق، بعيدة جدّاً عن التهمة التي يخشاها وهي أعظم خطراً. ألا إنّ في الأمر للغزاً غامضاً، وربما كان مقدّمةً لشرٍّ يكون أثقل عليه من الشرّ الذي يصيبه لو انكشف أنّه صارِعُ فاتكَ... تُرى، أما من يدٍ في هذا كلّه للعجوز أم سعاد ولطمع الوالي في سعاد؟

وفيما يتخبّط ذهنه تخبّط طائرٍ في شبكةٍ تورّط فيها، انسحب النهار بضوئه من الدنيا وزحف عليها الليل بظلامه، فكان على عيني نصر عصبةٌ أخرى فوق عصبة هذا المجهول الذي يواجهه.

وهنا لقطت أذنه صدى خطوات تقترب من خيمته، فجمع نصر شتات نفسه يترقّب، وإذا جنديٌّ يدخل عليه فيقول له:

– قم يا أعرابي. مولانا الوالي يدعوك.

قال نصر:

– لا أستطيع النهوض وأنا مقيّد اليدين والرجلين.

فتقدّم الجندي ففكّ الوثاق عن قدميه وأعانه على القيام، فشعر نصر

بمغارز الألم في ظهره لهذا الجهد الذي بذله فحرّك عليه جراحاً بدأت تجفّ وتتكمش، إلاّ أنه كابر ألمه ومشى متقوّياً إلى جانب الجندي، يتلقّى بوجهه رطوبة الليل، حتى صارا إلى خيمةٍ من حرير تعكس شعاع قمرٍ صحراويٍّ نقيِّ البهاء. تلك كانت خيمةُ الوالي وقد أُنيرت في داخلها بمصباح يقع نوره على رجلٍ بدينٍ بطين، اتّكأ فوق مفرشٍ من ديباج علي وسادةٍ كبيرة، يمشِّط لحيته بمشط غليظ الأسنان من أصابعه، أو يُدلِّك بيده وجهه السمين واللحم المترهل تحت ذقنه، وإلى جانبه سيفٌ عارٍ من غمده يتناوله ساعة يشاء.

وانسحب الجندي إلى خارج الخيمة، فقال ابن أم الحكم لنصر:

– أما تسلّم يا أعرابي! أرى أنك غاضب.

وارتسمت على الوجه اللّحِم السمين ابتسامةٌ عجب لها نصر، لأنها نابية عن موضعها في هذا الموقف.

واستأنف ابن أم الحكم يقول:

– ما كان قصدي أن يوجعك بالسوط إلى هذا الحدّ، مع أنّ ذنبك يسير.

قال نصر:

– إني أعجب من هذا الذنب الذي لفّقتموه عليّ، فمتى نفّرتُ الطرائد من طريقكم؟ ومتى لقيتموني قبل الساعة؟

ردّ ابن أم الحكم بصوتٍ ناعم نعومة النفاق:

– قد عرفت أنّك غاضب، فلًا أجازيك بهذه النبرة التي تخاطب بها واليك. قلْ ما اسمك.

– نصر.

– اصغِ إليّ يا نصر. أردت أن أعوّضك من هذا الذي وقع لك بغير قصدٍ مني. وستبتهج إن أصابك هذا البلاء الذي انساق لك على أثره الخيرُ الكثير.

قال نصر:

– ما أنا بفاهم عنك، ولكن في ظهري آثاراً من سياط قائد فرسانك تؤلمني، وقد نالتنيِ ظلماً واعتداء.

ودار نصر فعرض على ابن أم الحكم ظهره الذي بقي مكشوفاً. فقهقه الوالي كأنّ نصراً روى عليه نادرةً مضحكة. فعصفت في نصر عاصفةٌ من حقد كبتَها فلم يطلق لها العنان. ولكنه لم يتمالك أن يدور فيستقبل الوالي بوجهه ويقول له:

– ضحكُ سيدي الوالي ليس بلسماً لجراحي.

فأجاب ابن أم الحكم على الفور بتصفيقةٍ من يديه حضر على أثرها خادمٌ أمره بأن يمضي فيدعو طبيبه. ثم قال لنصر:

– جراحك هذه ليست شيئاً بذي بال: خموش من أظافر قط، وسيعالجها طبيبنا فلا تحسّ بها بعد الساعة. وسآمر بفكّ الوثاق عن يديك. ثم تسمع مني، يا نصر، ما يعجبك ويسكن له غيظك.

وإذا بالخادم ينقلب حاملاً معه جعبةً وفي صحبته شيخٌ، هو الطبيب، شابت لحيته شيبة رمادية، وانحنت كتفاه تحت رأسٍ قصرت رقبته، ومال إلى أمام. سلّم على الوالي، ثم نظر نظرةً في ظَهر نصر وقال له:

– دهان مرّة بهذا البلسم كافٍ لشفائك يا أعرابي.

وتناول الجعبة من يد الخادم ففتحها عن قوارير أخرج واحدةً منها

مسح بما فيها على ظهر نصر. ثم أخذ لفائف من قماشٍ لفّ بها ظهره وردّ عليه القميص قائلاً:

– انتهى كلّ الشرّ إن شاء الله.

فقال الوالي:

– تستطيع أن تنصرف، أيها الشيخ... وأنت أيها الخادم، تقدّم ففكّ هذا الوثاق عن يدي ضيفنا.

وبقي نصر عاجزاً أن يفهم السبب في هذه المعاملة الطيبة. إنها لبَادرة لها ما بعدها.

... تحلحل ابن أم الحكم من اتّكاءته على الوسادة فوق المفرش، وتنحنح تنحنحته الرسمية بعد أن خلت الخيمة إلاّ منه ومن نصر، ثم قال له:

– خذ لك مجلساً هنا على البساط وسلني ما تشتهي يا نصر. فإنّي غاظتني المعاملة السيئة التي عوملت بها.

أجابه نصر وهو يجلس حذراً متشوّقاً إلى معرفة ما عسى أن ينطوي عليه هذا الموقف الغريب المريب:

– لا أشتهي شيئاً كأن تتركني الساعة أمضي إلى الحي، فإنّ لي ابنة عمٍّ تنتظرني فيه وما أدري كيف تكون حالها الآن.

قال له ابن أم الحكم:

– أراك تكترث جدّاً لابنة عمك هذه، فأنت أبداً منصرف الفكر إليها. فهل هي تكترث لك؟

وعلى الفور أحسّ نصر أنّ هذا الرجل البدين البطين السمين الوجه الجالس أمامه قد بلغ موضوعاً يهمّه، بل الموضوع الذي يهمّه بالضبط.

وفي وضوح وجلاء استشفّ نصر أشياءَ كان يظنّ الحدس يخيّلها له تخييلاً... لقَد رأى ابن أم الحكم سعاداً مع أمها العجوز الخبيثة، وقد حدّثته سعاد بما أبدى الوالي لأمها من طمعٍ فيها. ثم ها هو اللئيم، بعد أن اعتقله بتلك التهمة الملفقة ورضي عن تمزيق ظهره بالسياط، يبدي له الملاينة ليصير معه إلى حديث سعاد. وأحسّ نصر بأنّ إناء نفسه أصبح لا يتّسع حتى لقطرةٍ واحدةٍ أخرى من هذا العصير المرّ الذي يُكرَه على تجرّعه والصبر عليه.

قال له ابن أم الحكم:

– ما بالك أطلت السكوت؟

أجابه نصر مجتهداً في أن يكبح نفسه للمرّة الأخيرة:

– سألت، أيها الأمير، عن شيءٍ لا أدري لَم يعنيك. حبّذا لو سألت كيف تشعر عامة الناس في هذه البادية تحت ظلّ ولايتك!

– أعلم أنّهم فقراء لم تسعدهم طبيعة هذه الأرض التي ينزلونها وهي صحراء بخيلة. وأعلم أنّك من أشدّهم فقراً وحاجة. ثم لقد أتاني نبأ صبرك وشجاعتك تحت وقع السوط، فوجدت نفسي عليك عطفاً ورأفة.

ففكّر نصر أن يقول له: ولكن ما علاقة هذا كلّه بسؤاله عن العاطفة بينه وبين امرأته. غير أنّ نصراً أدرك أنّ الوالي يداوره ولا يجسر أن يكاشفه حقيقةَ ما يرمي إليه من وراء هذه المداورة، بل المراوغة. فقال له:

– لا حاجة بي، أيها الأمير، في شيءٍ تخصّني به دون قومي. فاجلُ عن هذا الماء الذي منعتنا وروده، وارفع عن ظهورنا سياطك، ولا عليك من بخل الصحراء علينا.

إلاّ أنّ ابن أم الحكم تظاهر بأنه لم يسمع من هذا الكلام حرفاً. وعزم أن يشرع في هجومٍ خبيثٍ يشنّه على معنويات هذا البدويّ الصلب، فقال له مفاجئاً:

- يا نصر، تظنّ امرأتك تكترث لك، ولكنك فريسة وهم. إنّها تصدّت لي هي وأمها العجوز وأنا عائد من الصيد. و... رضيت أن تفارقك. وضاقت عينا ابن أم الحكم، وهو يلفظ عبارته الأخيرة، كثعلبٍ يتظاهر بالنعاس والغفلة ليتمكّن من الوثب على فريسة. كان يجتهد أن يتبيّن في جليسه أثر هذه الحرب: حرب الأعصاب. فإذا بنصر يغبرّ وتضطرب شفتاه وهو يردّ السؤال بسؤال:

- وعلامَ رضيت أن تفارقني؟

- لتتزوج والي أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان. أجابه ابن أم الحكم بجوابٍ مهيّأ على شفتيه. وفي عينيه بريقُ شماتةٍ لئيمةٍ بهذا العذاب الذي نال به نفس الأعرابي.

فقال له نصر خلال أنفاسه التي ازدحمت عليه:

- قد شعرت، أيها الأمير، أنك تراوغني هذه المراوغة كلّها لتوصلني إلى قصدٍ تبتغيه، ولم يفتني قطّ أنّ امرأتي وأمها تصدّتا لك في الطريق. لكنّ أمها العجوز هي التي استدرجتها. ثم ما بالك لا تقول أنّك طمعت في امرأتي مذ رأيتها، وعزمت أنت وأمها عزماً آثماً تنفّذانه بسلطان المال وسلطان الولاية. إنك تقول إنّ امرأتي رضيت بفراقي، وأقول لك: كلا، لا يسعني أن أصدّق. كلا! لا يسعني أن أؤمن بأنّ مالك وولايتك تبلغ قوتهما هذا المبلغ. فإذا كان كلامك حقّاً فاجمعني بامرأتي فنرى ما تقول.

أجابه ابن أم الحكم:

- ولكنّها صرّحت بطلب طلاقك أمام شهودٍ عدول، لعجزك أن تفي لها بما يجب للمرأة على الرجل. وقد حكّمنا بتطليقها منك. وقبلت أن تتزوجني. غير أنّها اشترطت شرطاً أن لا تواجهك، فهي تعلم مدى حبّك لها وتكره أن تجرحك بكشف الحقيقة لك. ثم إنّها أصرّت لشفقتها عليك أن نهب لك مالاً ونصرفك.

فعصفت بنصر عاصفةٌ اقتلعته من مجلسه اقتلاعاً. أفيمكن أن يكون هذا صحيحاً؟ وانفجر صائحاً كأنّه يريد سحق هذه البذرة من الشكّ التي زرعها في نفسه هذا الوغد المتآمر على سعادة الناس.

- كلا، لا أصدّق. إنك تخدعني أيها الأمير، وما سجنتني إلاّ لتنفّذ فيّ وفي امرأتي مكيدةً حبكتها أنت والعجوز من خيوط النذالة.

قال له ابن أم الحكم وقد مدّ يده خلسةً إلى مقبض السيف المصلت بجانبه:

- عد فاجلس يا أعرابي... ولا تأخذك الحدّة ولا ترفع صوتك. إنّي كنت عالماً بما يكون وقع النبأ عليك. ولذلك داورتك، رحمةً بك، هذه المداورة التي سمّيتها مراوغة. بقي أن تعقل وأن ترضى بما لا بدّ لك من الرضى به. سأعطيك مالاً يغنيك، وسأجعل لك سبيلاً إلى نسيان امرأتك من أخصر طريق.

وفجأةً انحسرت شفتا الوالي عن أسنانه انحساراً لم يدرِ نصر هل ذاك ابتسامٌ أم تكشير. ثم قال له:

- هل تشرب الخمر؟

وقام من مقعده، ببدنه الضخم، قياماً أسرع فيه وإن كلّفه جهداً.

ومشى فضغط على كتف نصر يدعوه إلى الجلوس، فجلس في حركة طواعية كحركة الآلة. وتابع ابن أم الحكم مشيته الثقيلة إلى باب الخيمة فصفق بيديه، فدنا منه الحارس ودار بينهما كلامٌ مهموس.

ثم عاد الوالي فاحتلّ مجلسه على المفرش، ملقياً إلى جانبه السيف، متّكئاً بظهره على الوسادة، حتى دخل الخادم يحمل على طبق إبريقاً كبيراً بفم كالمنقار في طرفه أنبوبٌ مقوّس كعنق الديك، وثلاثة أقداح من نحاسٍ منقوشٍ صقيل، وألواناً من الطعام وضعها بين الواليّ والأعرابيّ. ثم رفعَ الإبريق فأماله فامتدّ من منقاره حبلٌ زيتيٌّ ذهبيٌّ صافٍ كأنّه صيحة ديك في السَّحَر، حتى امتلأت الأقداح الثلاثة، وغادرَ الخادم الخيمة.

فتناول ابن أم الحكم قدحاً وقال لنصر: خذ مثله. وأفرغ الوالي كأسه في هذا الضرف العظيم الذي هو بطنه.

فأما نصر فبقيت يده ترتعش بالكأس عند فمه. وغرقت عيناه الذاهلتان في السائل الزيتي الذهبيّ أمامه، ولم يكن ذاقه من قبل، ولا كانت هذه هي المناسبة التي يشتهي أن يذوقه فيها.

قال له ابن أم الحكم وفمه يتمطّق:

– اشرب، اشرب!

فغمس نصر شفتيه في الكأس بتلك الحركة الطواعية كحركة الآلة. وامتصّ جرعةً انسربت في حلقة ناراً مشبوبة. وثاب إليه شعوره بهذا الشقاء العظيم الذي ينشر عليه جناحية الأسودين، وأدركته نوبة من سعال، ودمعت عيناه، واشتهى لو يرسل لدموعه العنان. غير أنّه ما زاد على أن مسح عينيه بحاشيةٍ من ثوبه.

فقهقه ابن أم الحكم حتى ارتجّ بطنه وقال له:

- شيءٌ لم تتعوّده يا نصر. لكنك إذا ألفته عرفت نعمته. وسيحضر بعد قليل من يفتح شهوتك له.

وانحنى ابن أم الحكم يلتقم شيئاً من الطعام ويملأ لنفسه قدحاً آخر، وإذا بجانبٍ من جوانب الخيمة ينزاح حريره كأنّه ستارٌ مسبل، ليطلّ منه رأسٌ معصَّبٌ بعصبةٍ حمراء، أشقر بشرة الوجه، تجول فيه عينان زرقاوان زرقة ظلّ السماءٍ في الماء النقي.

فقال ابن أم الحكم:

- أهلاً بشقراء. سأفرغ هذه الكأس الأخرى ابتهاجاً بطلعتك.

وأمال الكأس في فمه حتى ارتفع أسفلها فقابل سقف الخيمة، وسرحت منها قطرات علقت بلحية الوالي، فتألّقت في الضوء كالندى الصباحي على أسلات أعشابٍ يابسة.

- وأين العود يا شقراء؟ لِمَ لم تحمليه معك؟

فالتفتت العينانِ الزرقاوانِ صوب المكان الذي خرجت منه صاحبتهما، ومشت المرأة بخفّيها مشياً رفيقاً كأنّها تطأ عيوناً نائمة وتسحب أذيالاً من نسيم، وغابت لحظةً وراء الستارة، ثم عادت تضمّ إبطها على بطن آلتها الموسيقية الخشبيِّ المنفوخ.

وجلست ثالثة الاثنين، تبتسم ابتساماً يظهر أنّه جزءٌ من حرفةٍ لم تتقن تعلّمها بعد.

وناولها ابن أم الحكم الكأس الثالثة التي كانت تنتظرها على الطبق، وعاد هو فملأ قدحه من الإبريق الكبير وقال لها:

- طالما تحدّثت، يا شقراء، عن شباب الروم. والله لتنسينّهم إذا

عرفت شباب العرب من معدنهم في البادية. انظري، كيف ترين هذا الفتى البدويّ الأسمر العذب (وأومأ بعينيه إلى جهة نصر). لا يهمّك ما ترين من ثيابه الزريّة ولونه المتقع وسهومه ووجومه. سيُبدِّل هذه الثياب ويستريح من تعبه، ويستعيد نضارته وصفاءه، فتشهدين منه ما يساوي شباب الروم جميعاً.

فحوّلت المرأة عينيها الزرقاوين، في تؤدة، نحو نصر، والابتسامة الحِرَفية ما زالت منطبعةً على ثغرها الشفّاف الوضيء. وقابلها نصر بعينيه... فراغٌ وجمودٌ قابلا فراغاً وجموداً...

وقال ابن أم الحكم:

– هيا اشربي، يا شقراء، على معرفتك بنصر. وهيا اشرب، يا نصر، على معرفتك بشقراء. ما أحسنكما زوجاً وزوجة!.. هل أُشجِّعكما على الشرب؟

وقلب الكأس في الضرف العظيم. ودفعت شقراء دفعةً من الكأس في حلقها اختلجت لها عند الجرع جلدة نحرها البيضاء الرقيقة. وغمس نصر شفتيه في الكأس غمسةً لم يزد على أن رطّب بها جوانب فمه وهو يغصب نفسه على قبول الطعم غصباً تجلّى في انقباض سحنته.

قال ابن أم الحكم مقهقهاً:

– اعذريه يا شقراء؛ فهذا شيءٌ لم يتعوّده الفتى. لكنّه سيتعوده. وانقطعت قهقهة ابن أم الحكم وبدا عليه خدرٌ أخذ بأجفانه. وثقل عليه رأسه فألوى به على صدره، واستقرّت عيناه في القدح الفارغ في يده.

ثم نفض رأسه نفضةً كمن يستعيد صحوه وقال:

- شقراء، ألا تُسمعيننا شيئاً من غنائك وضربك على العود؟

فحضنت المرأة آلتها المنتفخة البطن، وردّت قائلةً بلغةٍ عربيةٍ دَلّ نطقها على أنّها غير بعيدة العهد بها:

- ماذا يختار سيدي أن أُسمعه؟

وانتقل الفكر بنصر إلى ربابته، وأوجعه إليها الحنين.

وقال ابن أم الحكم بلسانٍ أصبح يدور ثقيلاً في فمه:

- أنتِ أدرى بما أحبّ يا شقراء.

فجعلت المرأة تعرك بأناملها اللدنة آذان الآلة الموسيقية، وتنقف الأوتار المشدودة نقفاتٍ متقطّعةً تختبرها بها. ثم أمسكت بريشةٍ جعلت تضرب بها على الأوتار فتهتزّ كأنّها في ذنب طاووسٍ يجتهد في نقر الحَبّ. وأناملها تتحرك على أطراف الأوتار عند آذان العود، تضغطها ضغطاً أو تنزلق عليها انزلاقاً، فينبعث صوتٌ صافٌ كرنين أجراسٍ فضيّة، تقع عليها، وقعاً موزوناً، مطارقُ دقيقةٌ رقيقة. وفي أحيانٍ تحبس الأنامل اللدنة الأوتار الطيّعة حبسةً شديدة، وتنقرها الريشة نقرةً قوية، فتنطلق نغمةٌ كالدمعة المنفجرة تلبث الأوتار على أثرها في اختلاجٍ كأنّها ترتعش بمسرى تيّارٍ عنيفٍ خفيّ. وتنسبل الأهداب على العينين الزرقاوين كأنّه التيار الخفيّ سرى في قلب صاحبتهما فأيقظ فيها ذكرى شجيّة.

... إلى أن حركت المرأة الشقراء، في العصبة الحمراء، حنجرتها وفتحت شفتيها لتوسع سبيل الفضاء لصوتٍ مؤنّثٍ ناعم، يسيل مع نغمات العود خافتاً رقراقاً أول الأمر، ثم متموّجاً في صعودٍ مع ثورة شعورٍ ينطلق من سجنه لاعجاً محرقاً.

لبيتٌ تخفق الأرياح فيه أحبُّ إليّ من قصرٍ منيفِ
ولبسُ عباءةٍ وتقرّ عيني أحبُّ إليّ من لبس الشفوفِ
وأكلُ كسيرةٍ في كِسْر بيتي أحبُّ إليّ من أكل الرغيفِ
وخرقٌ من بني عمّي فقيرٌ أحبُّ إليّ من عِلْجٍ عنيفِ!

– لا فُضَّ فوك يا شقراء، لا فُضَّ فوك! قال ابن أم الحكم، وفتح أجفانه الثقيلة على المغنيّة التي سكنت حنجرتها وانطبقت شفتاها، وماتت حركة أناملها وريشتها على أوتار العود. ثم ألوى برأسه على صدره وضحك كأنه يخبّئ ضحكه في قميصه، وتمتم بصوتٍ حذر:

– قاتلك الله يا ميسون بنت بجدل الكلبيّة، زوّدت هذا الماكر زاداً بقي على الدهر!.. ولم يجسر ابن أم الحكم أن يلفظ صراحةً اسم هذا الماكر، وهو الخليفة معاوية، وقد قالت فيه ميسون امرأته البدوية تلك الأبيات أو قيلت على لسانها.

فاستطرد ابن أم الحكم:

– حبّذا لو ترقصين رقصةً يا شقراء، فتزيدي في سرور ضيفنا واستغراقه في نعيم الهناء. والتفت إلى نصر، ونصر منخطفٌ سابحٌ قد لجّ في سهومه ووجومه مع الموسيقى والغناء وما يغمر نفسه من شقاء.

فأجابت شقراء:

– يعلم سيدي الوالي أنني لا أستطيع الرقص إلاّ أن يكون من يعزف لي.

– إذن فلا ترقصي، ردّ عليها ابن أم الحكم في عفويّةٍ تشبه البلاهة، وكأنّه نسيَ أنّه هو الذي طلب إليها الرقص. ثم فغر فمه في تثاؤبةٍ كادت تشقّ شدقيه، وألوى برأسه، وفرش لحيته على صدره.

وخيّم على المجلس سكونٌ ثقيل. لا حركة إلاّ أنْ تحوّل شقراء

عينيها الزرقاوين في تؤدةٍ إلى جبهة نصر، أو يستقرّ نصر بعينيه على جانبٍ من وجهها يتأمّل بشرتها الرقيقة التي توشك أن تشفّ عن انسياب الدم تحتها.

وبعد؟

شخر ابن أم الحكم شخرةً، هزّ على أثرها رأسه منتفضاً، وأسرع بيده إلى السيف في جانبه، وفتح عينيه مرأرئتين على الأعرابي أمامه والجارية الرومية وطبق الخمر والطعام، وانفرجت شفتاه عن ابتسامةٍ صفراء. تُرى، أكان نصر حقّاً يفكّر في تناول السيف وضرب الواليَ ضربةً يطيح بها رأسه، كما عَرض لابن أم الحكم في غفوته القصيرة؟

وشفع ابن أم الحكم ابتسامته الصفراء بتثاؤبةٍ كبيرة، وفرك عينيه فركاً عنيفاً وهو يقول:

– مجلسكما باردٌ بحضوري، أيها الحبيبان. سأترككما فأنسحب لأنام. أنتما الساعة حبيبان. ثم أنتما غداً زوجان. أوصيكِ به خيراً يا شقراء، وأوصيكَ بها خيراً يا نصر.

ونهض متثاقلاً، وبيده السيف، فمشى إلى الموضع الذي أقبلت منه الجارية وغاب خلف الستارة، فتمدّد على الفراش. لكنّه لم يستطع أن ينام إن كان قد نوى النوم.

ولبث نصر وشقراء في هذا المجلس الذي بهظه عبءٌ من الصمت. وقد خطر لنصر، أول شيء بعد انصراف ابن أم الحكم، أن يثب على قدميه فينطلق من باب الخيمة فارّاً تحت سجف الليل. لكن كيف يصنع بالحارس الذي يذرع المكان جيئةً وذهاباً خارج الخيمة؟ ثم كيف يصنع بمن في المخيّم كلِّه من خدمٍ وجنود؟ إنّ الشبكة حوله شديدة الإحكام.

وفطن إلى العينين الزرقاوين تطيلان إليه النظر في سهومه ووجومه. كانت شقراء تتأمّل شفتيه السمراوين الظمآوين، فإذا بها تشيح عنه حين أدركت أنّه فطن إليها، وتبتسم وانيةً وهي تقول له: ألا تشرب؟ ثم تمدّ ساعداً من عاج إلى الإبريق فتملأ كأسها بالسائل الزيتيّ الذهبيّ وتجرعه دفعةً واحدةً.

فلم يزد نصر على أن بلّ شفتيه بالخمرة، كعادته، وقال لها:

– إنّ لك لشأناً، يا امرأة؛ فما شأنك؟ أصدقيني.

فنظرت إليه نظرةً طويلةً نبعت على أثرها الدموع في عينيها الزرقاوين، فدفنت وجهها في راحتيها، واضطرمت كتفاها بشهقاتٍ خنقتها لكي لا يعلو لها صوت.

فأعاد عليها نصر السؤال: ما شأنك؟ أصدقيني، أصدقيني الخبر.

فرفعت إليه وجهاً بليلاً بدموعها، وجعلت تقصّ عليه حكايةً طويلةً مفعمةً ألماً وعذاباً، عرف منها نصر أنّ هذه المرأة الشقراء صبيّةٌ روميّة سُبيت سبياً في إحدى المعارك، فأصبحت جاريةً تُباع وتُشرى، بعيدةً عن أهلها وملاعب طفولتها، بعيدةً عمّن تحبّ، قد زاد في شقائها ونكد حظّها أن سقطت بين يدي هذا الوالي الذي لها بها وقتاً، ثم هو يريد الآن أن يزوّجها نصراً ليتزوّج بامرأة نصر، كأنّ النساء بهائم أو متاع يُقايض مقايضة.

فأجفل نصر كأنّه كُوي على غفلةٍ بقضيبٍ من حديدٍ حُمّي بالنار حتى احمرّ.

وحسبت الشقراء أنّه استاء لما بدر منها، وأنّه راضٍ عن هذه المقايضة، فأسرعت تقول له:

- ولكنّي أُفضِّلك رجلاً على هذا الوالي المستهتر، وأُفضِّل عليه رجلاً أيّاً كان.

واجتهدت في أن تبتسم له ابتسامةً صادقةً لتقنعه بإخلاصها في ما تقول.

فأجفل نصر هذه المرّة أيضاً، وكان قد أجفل في المرّة الأولى لما هاله من فظاعة الوالي. فخطر له في المرّة الثانية أنّ هذه المرأة الفاتنة ربما كانت شريكة الوالي في مكيدته وأنّها تتبع خطةً في استدراجه إلى حبائلها القانصة.

فقال لها وفي صوته نبرةٌ قاسية:

- إيّاك أن تحاولي المستحيل، فإنّي رجلٌ لا مطمع له في غير امرأته. وبلّغي هذا الوالي النذل الذي أخرجك لتستدرجيني إلى حبائلك، أنّه قَوّادٌ بارعٌ، ولكنّه خائن.

فانفجرت عينا الجارية دموعاً غزيرة، وطأطأت رأسها، وسترت وجهها بيديها، وأغرقت في النحيب.

فمسّ قلب نصر شعورٌ من ندامةٍ وشفقةٍ عصَرَه عصراً. وأوشك أن تغرورق عيناه في العبرات وهو يتأمّل رأس هذه المرأة في العصبة الحمراء التي استرسلت من تحتها شعراتٌ كأسلاك الذهب أو كالخيوط الدقيقة من شعاع الشمس.

وهنا اهتزّ جانب الخيمة الذي اختفى خلفه ابن أم الحكم، ثم بدا من ورائه بطنٌ عظيم فوجهٌ سمين فبدنٌ ضخم، بيده السيف. وانفتح فمٌ يرشق الكلمات رشقاً ويهزّ معها لحيةً كأنّه مروحةٌ يروّح بها إنسانٌ يوشك أن يختنق في يومٍ صائب.

صاح ابن أم الحكم يخاطب شقراء:

- أما تكفّين، ويحك، عن هذا النحيب؟ وأمسك بمنكبها فأنهضها ودفع بها، فتوارت خلف جانب الخيمة التي خرجت منه... "اذهبي، اذهبي، أيتها البومة!"

ثم صاح بنصرٍ وهزّ في وجهه السيف: أما أنت أيّها الأعرابي الكلب، فسوف تعلم مصيرك إذا طال عنادك.

وصفق ابن أم الحكم بيديه، فأسرع الحارس إلى داخل الخيمة، فجاء يقول له: جئ بحبالٍ غليظةٍ فأوثق هذا الكلب وجرّه إلى سجنه حيث كان.

الفصل الثامن

مع ذلك الصباح، صباح الليلة التي اعتُقل فيها نصر، طلع على سعاد فارسٌ تصحبه أمُّها في ثيابٍ جديدةٍ زاهية من القماش اليماني، أثارت دهشتها. وأمرها الفارس بأن تسير وأمها فوراً إلى مخيم الوالي. فاعترض حلقها "قالبٌ" من مادة لا تذوب برغم ما بلعت ريقها، وأوشكت أن تنفجر باكيةً ساعة وقع نظرها على أمها، لكنها تذكّرت أنّ هذه العجوز لم تبقَ جديرةً بأن ترى دموعها، فعبست في وجهها تعبيساً حاقداً وقالت بلهجة ملؤها التحدّي:

– إنّي مستعدة!

ومضى الثلاثة في الطريق إلى مخيّم ابن أم الحكم، والعيون عليهم من كلّ صوبٍ في الحي. أم ترى كانت العيون تلك ترمق ثياب العجوز الجديدة الزاهية؟

... كان ابن أم الحكم، حين مثُلت بين يديه سعاد وأمها في خيمته الخاصة، قد لبس أبهى ثيابه، وتطيّب بأزكى عطوره، وتربّع في مكانٍ عالٍ، طوراً يمسح بيده على بطنه، وتارةً يمشط لحيته بأصابعه، ويتنحنح تلك التنحنحة الرسمية التي تكاد تكون علامة فارقة بين "العظماء"

و"الوضعاء" في الدولة. فقال لسعاد، ونبرة صوته مزيجٌ من اصطناع اللطف واصطناع الهيبة:

- آثرت أن أتخلف اليوم عن الصيد لأستدعيك فأراك. أيسرك ذلك؟

أجابته سعاد وفي محيّاها الفتيّ شحوبٌ ونهكة:

- إنّما السرور، أيها الأمير، لمن لهم السرور.

- ولَمَ لا يكون لك السرور؟ ألعلك محزونةٌ على فاتك، وقد سمعت أنّه كان يودّك؟

- ظنٌّ في غير موضعه أيها الأمير، وإنّك أدرى بسبب حزني.

قال لها وكأنّه لم يدرك إشارتها الخفيّة إلى حبس نصر:

- ولكن سرورك سيكون عظيماً جداً ساعة تعلمين بهذا الابتسام الذي غمرك به الحظّ. لقد عزم ابن أم الحكم، والي الخليفة معاوية بن أبي سفيان على البادية، أن يتّخذك له زوجة.

فشعرت سعاد برعشةٍ تنتابها، وبمثل النار تشبّ في عروقها. قالت له وقد تجاسرت عليه بنظرها الحاد:

- وكيف يجوز، أيها الأمير، وأنا امرأةٌ متزوجة؟

أجابها ضاحكاً:

- طبعاً! إنّي رجلٌ لا يكره شيئاً كما يكره الحرام. فلو أنّك كنت باقيةً زوجةً لزوجٍ لما طلبت منك ما طلبت.

فتفرّست فيه سعاد من شدّة الدهشة وطاف بعينيها خيالٌ من جزع. أومض في ذهنها أنّ نصراً قد يكون لقي حتفه في السجن بمكيدةٍ مدبّرة. قد يكون رجال الوالي استفزّوه فثارت به الحميّة فعاركهم

فقتلوه. على أنّها لم يخطر لها ببال هذا الخبر الذي راح يمزّق به الوالي أذنيها. قال:

- كأنّك لا تصدّقين أنك لست الآن زوجةً لزوج. فاسمعي. لقد طلّقك نصر. أغرته أمك بالمال وبحسناء سواك: جارية روميّة في حاشيتي، شقراء بضّة، فتخلّى عنك بشهادة اثنين من شهودٍ عدول. ولقد عظم عليه أن يراك بعد الذي فعل، فسألني العفو عنه، وغادر السجن يضرب في الآفاق ليستوطن زوجته الجديدة مكاناً غير هذا المكان.

ولم تخلُ العجوز، أم سعاد، من شعورٍ بالمفاجأة حين سمعت كلمات الوالي. وقالت في سرّها: حقاً لقد بزّني الرجل في الحيلة والمكر. فما كنت والله ليخطر لي خاطر هذا النبأ عن زواج نصر.

أما سعاد فترب محياها. لم تبقَ فيه قطرةٌ من دم. قالت:

- إن كان نصر فعل ذلك فسامحه الله، وإن كان لم يفعل فسامحك الله يا سيدي، أما أنا فما أبغي زواجاً أبداً، ومولاي له في جواري المدينة ومغنياتها، وبنات المقاصير والحمامات في دمشق غنىً عن جلافة الأعرابيات مثلي.

وعجبت سعاد من نفسها لهذا الهدوء الذي استطاعت أن تواجه به الموقف الصاعق، ولم تتمنَّ شيئاً كأن تنصرف فتخلو إلى ذاتها ترسل العنان لما تجيش به نفسها. واستأنفت تقول بصوتٍ خفيضٍ لا يكاد يبين، كأنّه الأنين:

- والآن، هل يأذن لي سيدي بالانصراف؟

فسمعت فجأةً صوتاً جافّاً يجيبها:

– كلا، إذا أذن مولانا فإنّي لا آذن. وأنا القيّمة عليك.

كان هو صوت أمها. ما كادت تسمعه سعاد حتى أحسّت بزلزالٍ عنيف ينتابها. ونظرت إلى أمها تتأمّلها في هذه الثياب الجديدة الزاهية عليها، فخُيّل لها أنّها تنظر إلى حيّة رقشاء، وأنّها لا تشتهي شهوةً كأن تسحق رأسها. فاقشعرّت حتى العجوز تحت تلك النظرات. ورأت أن تلين في الكلام لهذه البنت المتمردة، فقالت لها:

– احمدي الله، يا سعاد، على هذه المحنة. فقد كشفت لك مقدار الحبّ الذي كان يخصّك به نصر. إنك كرهتني لأنّي أردت لك زوجاً ثرياً كريماً. وزعمتني أطمع في بيعك بالمال، فهل لم يبعك نصر بالمال؟ هل ثبت على عهدك حين حوّلت وجهك عن دنيا النعمة التي سخّرها لك الجمال وقنعت بأن تكوني زوجة أعرابيٍّ فقيرٍ حقير، يعزف على ربابته، ويقوتك ويقوت نفسه بخدمة الناس وبغنيمات له لا تغني ولا تسمن من جوع؟ قليلاً من التفكير يا ابنتي. إنّ نصراً قد تركك، وتزوّج سواك جاريةً روميّةً شقراء بضّة. فيا للخائن الدنيء! اطرديه من قلبك، وأقفلي دونه كلّ بابٍ من أبواب الذكرى. وكوني راضيةً شاكرةً بأنّ يسّر الله لك في مولانا الأمير رجلاً يكره الحرام ويبغيك زوجةً له تشاركينه في كلّ ما تشارك به الزوجات المحبوبات بعلهن.

لشدّ ما انتفضت سعاد حين طرق سمعها ذكر الزوجات وبعلٍ واحد، ولشدّ ما اشتهت أن تنفجر صارخةً بشيءٍ تقوله لهذه الأمّ التاجرة فتُخرسها إخراساً. لكن أوشك غيظ سعاد أن يخنقها. وشلّتها هذه الحيرة التي تستبدّ بالإنسان إذا واجه موقفاً يجهل فيه الحقيقة. بل لم تنجُ من شعورٍ بمخالب الغيرة تنشب في قلبها. كانت عاطفتها

تنكر أن يكون نصر طلّقها وتزوّج سواها بترغيبٍ أو ترهيب. لكن من يدري ما يكون تأثير المال وجاريةٍ روميّةٍ شقراء بضّة؟ أوّاه! كيف السبيل إلى معرفة اليقين الذي شكّ فيه؟

ولبثت صامتةً مستغرقةً في صمتها...

قال ابن أم الحكم:

– أظنّك اقتنعت، يا سعاد.

وأردفت أمها تقول:

– لا تضيّعي هذه الفرصة، يا ابنتي. إنّ مولانا الوالي عازمٌ على الانصراف بعد يومٍ أو يومين، وقد أحبَّ أن يبتّ في هذا الأمر قبل ذهابه، فأعلني له رضاك، ولتكن الليلةُ عرساً لم تشهد مثله البوادي.

قالت سعاد وجبينها يتبلّل بالعرق:

– ويحي! إنّ أنفاسي لتضيق في هذا المكان. دعوني أخرج. وفكّرت في أبيها الشيخ الضعيف. إنها تستطيع معه أن تبكي، على الأقل، فيشاطرها البكاء. وهنا، على ذكر أبيها، فطنت إلى شيءٍ ظنّته لسذاجتها (سذاجة الغريق الذي يتمسّك بالقشّة) وسيلةً تفرّج عنها في هذا المأزق الخانق. تذكّرت أنّ أمها – يوم لقيتا ابن أم الحكم معاً لأوّل مرّة – قد زعمت نفسها أرملةً وبنتها يتيمة. فإذا هي قالت الآن للوالي إنّها تريد الذهاب إلى أبيها، اتّضح له كذب أمها، فيغضب على هذه العجوز لتزويرها عليه.

ورفعت سعاد إلى ابن أم الحكم عينين متعبتين ضارعتين، وقالت له:

– أريد الذهاب إلى أبي، يا سيدي الأمير. إنّ لي أباً شيخاً وربما جهلت ذلك.

فابتسم ابن أم الحكم. يا للغرابة!.. لم يفاجئه الخبر. وقال لسعاد وهو يفتل بأصابعه أطراف شعرات من لحيته:

- و لِمَ تذهبين إلى أبيك؟ فهل يمكن أن يعارض في زواجك بعد إذ يعلم أنني أنا طالبك وأنّ نصراً طلّقك وتزوّج سواك وغادر المكان بما قبض من مال؟ لكن إذا كنت ترغبين في حضور أبيك بعثت في طلبه.

وصفّق بيديه السمينتين الرخصتي اللحم، فأصدر أمراً إلى أحد فرسانه أن يمضي إلى حي بني عذرة فيحضر الشيخ أبا سعاد.

ووقفت المرأة الصبية كالظبية الواقعة في شرك القنّاص تنظر بعينين كبيرتين، مفتوحتين على الأشياء ولا تريان شيئاً، كأنّهما من زجاج. لقد انقطعت بها الأسباب فلن تستطيع إفلاتاً من هذا الموضع الذي يضيّق عليها أنفاسها، ولن تستطيع أن تهرب في هذه الصحراء الفسيحة ريثما تستيقن من أمر نصر.

وفجأةً تذكّرت أنّها، قبل أن تتزوج نصراً، كانت على وشك أن تُزوّج فتىً غنياً أقبل يوماً على الحيّ يخطبها. لقد عمدت يومئذٍ إلى الجنون ووعدت نصراً بأن تُجنّ كلّما خطبها خاطب. فلمَ لا تجنّ الآن؟

وفيما الوالي وأمها يتوقّعان منها كلمة الرضى، أرسلت صيحةً ناحبةً طويلة، وراحت تقلّب عينيها في رأسها وتشدّ ثيابها لتمزيقها والزبد يرغي على زاويتي شفتيها.

فنهض الوالي يهدّئها، وترامت عليها أمها، لكن دفعتهما عنها دفعاً عنيفاً وحدّجتهما بعينين تبرقان ببريقٍ وحشي.

قال الوالي وهو يلهث لازدحام أنفاسه: هل جُنّت؟

أجابته أمها: لا عليك يا مولاي. إني أعرف هذه الخبيثة، فهي تصطنع الجنون اصطناعاً...

واستولت النهكة على سعاد، فانهارت انهياراً على أرض الخيمة لا تتحرّك إلا بمقدار ما تهزّها أنفاسها الخافتة.

وجاء أبوها قلقاً مضطرباً، لا يعلم لَمَ أرسل الأمير فارساً من فرسانه يطلبه بهذه السرعة. فلمّا أُدخل خيمة ابن أم الحكم وأبصر ابنته مطروحةً أرضاً، رمى زوجته بنظرٍ شزرٍ، وهمّت شفتاه بأن تغلظا لها في الكلام، لكنّه فطن إلى وجود الأمير فارتبك وارتقصت لحيته. وأراد أن يبادر بالتحيّة فغصّ بها حلقه، واسترخت حنكه، وتحدّرت دمعتان كبيرتان من عينيه العمشاوين على خدّيه الذاويين.

وتنبّهت سعاد لمجيئه فنهضت تعانقه وتشهق بالبكاء.

وضحك ابن أم الحكم لهذا المشهد. ضحك مستخفّاً عقل هذه الصبيّة البدويّة التي تعاند في ما لا يوجب العناد. وأبصرته أم سعاد ضاحكاً فقالت له: شيءٌ يثير الضحك حقّاً يا مولاي، لكنّ المزاح سينتهي فيعقبه الجدّ.

وصاحت العجوز بشيخها: أراك تفسد هذه البنيّة، يا شيبة النحس. لقد طلّقها الصعلوك ابن أخيك بمالٍ دفعته له من كرم مولانا الوالي وتزوّج بجاريةٍ روميّةٍ من جواري مولانا، ولقد عفا عنه الأمير. فما خرج من السجن حتى غاب في الآفاق بين سمع الأرض وبصرها. ويريد الأمير أن يتزوّج ابنتنا بعد أن تركها ابن أخيك، فما تقول؟

أجاب الشيخ وقد ضعف أمام عجوزه، ولان لقوّة الإغراء، ورأى عيني ابن أم الحكم تحدّجانه بما لا يحمل الطمأنينة:

- وهل لمثلي أن يعارض مشيئة الأمير ويتردّد في شرف مصاهرته؟
فكفّت سعاد عن معانقته. ابتعدت عنه وانحبست دموعها فجأةً، وعادت تصيح صيحتها الناحبة الطويلة.

إلاّ أنّ أذناً لم تسمعها غير أذن أبيها الشيخ الضعيف الحائر.

وأبى الوالي وأم سعاد أن يضيّعا وقتاً، فعقد ابن أم الحكم لنفسه على سعاد في تلك الساعة. قال لها كمن يصدر أمراً عالياً من أوامر الدولة:

- زوّجتك نفسي، يا بنيّة!

فصاحت سعاد صيحتها الناحبة الطويلة التي انقلبت إلى قهقهةٍ متحديّة.

وعلى الأثر، نودي في ذلك الحيِّ الهادئ المنقطع من أحياء بني عذرة أنّ ابن أم الحكم، والي الخليفة معاوية بن أبي سفيان، قد تزوّج سعاداً من نساء الحيّ بعد أن طلّقها زوجها نصر. وسيقام الليلة عرسٌ عظيم في خيام الأمير تُنحر فيه الذبائح وتُوقد النيران وتُوزَّع العطايا على الناس.

وحقّاً كان العرس تلك الليلة كما نُودي عليه عرساً للجميع حتى الصباح. أكلوا فيه ما شاؤوا على ضوء نيرانٍ ملأت الفضاء، وأخذوا فيه الهدايا الثمينة. ولكم حسدت أمٌّ سعاد من أمٍّ وأباها من أب. بل لكم حسدت سعادَ من فتاة!

أجل، كان العرس للجميع إلاّ لسعاد. كانت في مأتم، تتذكّر العرس الآخر، عرسها الحقيقي، ليلة زُفّت إلى نصر وعزف على ربابته عزفاً طربت له الصحراء!

مكثت سعاد أثناء العرس قابعةً في خيمة الوالي الخاصة، في تلك

الخيمة التي شهدت حوادث الليلة الفائتة بين ابن أم الحكم ونصر وشقراء. ولقد وُضعت سعاد هناك وضعاً وربطت بالحبال لأنها أصرّت على جنونها، وخشي الوالي وأمها أن تهرب.

وكانت الفتاة الأعرابية، إذا استغرقت حيال هذا العرس، في تذكّر العرس الآخر، لا تملك أن تفكّر في الأمر الذي ما برح يضغط عليها ضغط كابوسٍ ثقيلٍ منذ أن حدّثتها به أمها والوالي. فهل يمكن أن يكون نصر طلّقها حقّاً، راضياً بمالٍ دُفع إليه، بالغاً ما بلغ؟ وهل يمكن أن يكون عدل عنها إلى ذراعي الروميّة البضّة الشقراء؟ إنّ عاطفتها لتأبى أن تصدّق عن نصر مثل هذه الدناءة وهذا النكث بالعهد. لكنّها مع ذلك لا تستطيع أن تقطع في الأمر قطعاً فهي في شكٍّ ربما كان واهن الأساس، إلاّ أنّه يعذبها بأشدّ مما يعذّبها هذا المصير البغيض الذي ساقتها إليه قسراً مآربُ لا ترحم. وبعد، كيف تستقبل هذا المصير البغيض؟ أوّاه لو كانت تعلم علم اليقين حقيقة السلوك الذي سلكه نصر!

صحّ عزمها آخر الأمر على أن تعمل بوحي عاطفتها ويقين قلبها. فنصر لم يطلّقها، ولم يتزوّج سواها، جاريةً روميّةً أو غير روميّة، شقراء أو غير شقراء، وكفى! وهذا الزوج الجديد، الأمير ابن أم الحكم، لن يصادف منها إلاّ امرأة مجنونة مصرّة على جنونها، لا سبيل له إلى الدنوّ منها إلاّ وهي جثّة هامدة.

ونبض قلبها نبضاً مسعراً محموماً، وبقي ينبض.

الفصل التاسع

في هذا الآن نفسه، كان في موضع آخر من خيام الوالي قلبٌ، كقلب سعاد، ينبض هو الآخر نبضاً مسعراً محموماً. وكأنّ القلبين في نبضهما يتناديان ويتجاوبان ويتبادلان، في خفاء، قوّةً وصبراً وأملاً وعتاباً.

ذلك أنّ نصراً، بعد تلك السهرة التي قضاها في صحبة الوالي وشقراء، أُقيم هو أيضاً في المخيّم موثقاً بالحبال تأتيه أصوات العرس وكأنّها خناجر حادّة الشفار تغوص في أعماقه. سوى أنّ الحبال التي ربط بها كانت أغلظ، وعقدها أشد. وكانت الخيمة، التي وُضع فيها ساعات متراكمة يبدو أن لا نهاية لها، خيمةً زريةً عارية الأرض مظلمة، لا يُحمل إليه فيها إلاّ ما يمسك رمقه من فضلة طعام تدسّه له في فمه يدٌ غريبة لأنّ يديه مقيّدتان.

لكن لعلّ هذا كلّه لم يكن بمفرده ليفرغ الهمّ والكدر في قلب نصر. فلقد ألف شظف العيش وتعوّد الحرمان، ولقد فعل ما لا يُعدّ هذا الحبس بجانبه إلاّ حظاً طيباً. وتلك السياط التي نهشت ظهره، وهذه الحبال التي تقيّده الآن، ليست سوى بلاءٍ يسيرٍ بالقياس إلى باقي البلاء.

فهل يمكن أن يكون هذا الوالي الوغد صدق في ما قال؟ هل يمكن أن تكون سعاد فرحت ولو ذرّة من فرح، في سريرة نفسها باعتقاله وضربه بالسياط؟ تُرى، هل علمت بضربه بالسياط؟ وهل يمكن أن تكون رضيت حقاً بأن تقطع ما بينهما لتتزوج ابن أم الحكم؟ وعلامَ تتزوجه؟ ألتنعم بجاهٍ أو بمال؟ أتنزل على إرادة أمٍّ دنيئةٍ لا تعنيها سعادة أعزّ الناس عليها طمعاً في مكسب؟ أوّاه! لو كان يستطيع أن يقتنع بأنّ سعاداً إنّما رضيت - إن كانت قد رضيت - بأن تفعل ذلك في سبيل الحب؟ فالحبّ مهما بلغ من جرحه لا يحقد إذا غلبه حبٌّ آخَر. فأمّا إذا غلبته التجارة فإنّه ليعجز عن المغفرة. ولا يلطف حقد الحب، بل يزيد في مرارته، أن يتحول موضوع شفقة المحبوب. وماذا تخال سعاد؟ هل تخال أنها ترضيه إذا اشترطت بأن يوهب له مالٌ لقاء تركها إياه؟ يا للحقارة!

تلك هي الخواطر التي جعلت تساور نفس نصر في أسئلةٍ ملحّةٍ محرقة كأنّها تُحفر في نفسه بأطراف قضبانٍ حديديّة محمّاة بالنار.

غير أنّه كان لا يلبث، في لمحات، أن يستعيد شيئاً من طمأنينته حين يعرض له أنّ هذا كلّه يُحتمل أن لا يكون سوى مؤامرة من أم سعاد الأفعى الخبيثة وهذا الوالي الوغد. فهذه الكربة، إذاً، لا بدّ أن تنجلي، وهذا السجن الذي زوي فيه عن الشمس والهواء لا بدّ أن يزول... هو الحب والثقة بالحب كانا يثبتان فيه عزمه كلّما طغى عليه الوهن.

لكن ترى ما هذه الأصوات الليلة، أصوات العرس؟ يقيناً أنّ أكره ما يكرهه وأخوف مما يخافه قد وقع.

ومن ثم يعود فينشب الصراع الجبّار في نفسه بين يأسه الذي

استفحل عليه جدّاً هذه المرّة، ورجائه، رجاء الحب، الذي أبى إلاّ أن يصمد متحدياً معانداً كلّ مظهرٍ من المظاهر الصاعقة الساحقة.

وفجأةً دخل عليه داخلٌ في وحشة الخيمة... كان هو الرجل الذي يحمل إليه فضلة الطعام التي يمسك بها رمقه. وكان هو الحارس نفسه الذي واجه أم سعاد يوم بكّرت إلى الأمير في ذلك الصباح غبّ مصرع فاتك، فلم يُسهّل لها الدخول إلاّ بعد أن وعدته بالمكافأة، على أنّ المكافأة بقيت وعداً فارغاً، فانطوت نفسه على مرارة.

قال الحارس لنصر: جئتك هذه المرّة بشواء، هيا كلْ.

وكانت عادة نصر إذا خاطبه الحارس أن يلتزم الصمت المطبق. غير أنه وجد الآن دافعاً قاهراً على الكلام. فأجاب بصوتٍ مسحوق:

– إني أسمع يا أخي أصوات عرسٍ في مخيّمكم.

– هو ذاك! لقد تزوج الوالي. وما أدري ما عدد هذه المرة التي يتزوج فيها!... كلْ، ما لك لا تأكل.

وانحنى فدسّ له في فمه قطعة من الشواء، فمضغها نصر في غير شهوة، ثم تفلها قائلاً: شدّ ما هي مرّة! وصمت هنيهة، ثم سأل:

– ومَنْ هذه التي تزوجها الوالي؟

أجابه الحارس:

– لقد شبع من بنات المقاصير والحمّامات في دمشق، فتزوج، هذه المرّة، امرأةً بدوية اسمها سعاد من نساء هذا الحي القريب من أحياء بني عذرة، وأحسب أنك أنت من هذا الحي!

قال نصر، وفي صوته أوجاع كأنّ خنجراً طعنه في صدره: ويك! إنها امرأتي!

قال الحارس وهو يعضّ على شفتيه:

- لقد قدّرنا ذلك، وعلمنا أنّ السياط التي نلتها لم تكن لتنفيرك طرائد الوالي... يا هذا، إنّ لك امرأة عمّ أعرابية خبيثة، أخت إبليس، مالت بها السنّ، أحسبها هي أصل الشرّ. أما زوجتك فما أظنّها راضية أن تستعيض عنك بالوالي. هي مثلك تأبى أن تستبدل بك.

فرمقه نصر في تعجّب وقال له:

- يظهر أنك على علم. فكيف عرفت هذا كله؟

- فهل تظن، إذن، أننا لم نعلم بسهرتك ليلة أمس في خيمة الوالي، وبما دار في تلك السهرة؟

وكان نصر يودّ فوراً أن ينتقل إلى سؤال الحارس كيف جاز للوالي أن يعقد لنفسه على امرأةٍ معقودٌ عليها لرجلٍ آخر. لكنه خشي أن يسمع منه أنّ سعاداً قد طلقته. فهو إن سمع ذلكَ انهار انهياراً.

أجابه الحارس:

- أنا أدري عن أيّ شيء تسأل، فاسمع. لا شكّ أنك تعرف فاتكاً وأنت من حيّه - فاتكاً الذي قتله على باب المخيّم سهمُ راعٍ من رعاتكم. لقد سبق له أنّ حدّثنا عن الأعرابية امرأة عمك، وعن زوجتك الصبية الحسناء، وعمّا يظنّه من أنّ الوالي يطمع فيها. وكنّا نحن في حديث هذا الوالي الذي يتحلّب ريقه للنساء فيتأخّر في إخراج أرزاقنا إلينا. وقد أقبلت العجوز امرأة عمك مرّة، في سَحَر الليلة التي قتل فيها فاتك، تريد أن تقابل الوالي، فيسّرت لها المقابلة - وأنا الحارس ليلتئذ - بعد أن وعدتني بالمكافأة. ثم انصرفت فعادت تصحبها فتاةٌ فارعةٌ رائعة الجمال. ثم لم يلبث أن أُعلن قيام هذا العرس الليلة. وأنت

تقول إنّ الفتاة هي زوجتك. لقد سمعت في النهار من خيمة الوالي صيحةً ناحبةً طويلة، لا أظنّها صدرت إلاّ عن زوجتك ساعة صدر الأمر بزفافها إلى الوالي. ثم علامَ استمرّ سجنك أنت؟ هل استمر إلاّ لأنك أبيت أن تترك زوجتك للوالي وتستعيض عنها بأخرى من جواريه؟ اسمع يا أخي. إننا استروحنا روائحَ مكيدةٍ خبيثة لأول لحظة. وها هي المكيدة تنجلي. والأعرابية العجوز كذبت عليّ حين وعدتني بالمكافأة، وهذا الوالي لا ينفكّ يبذّر ما هو حقّنا من مال في ولائم زواجه وملاذه. فثق أنّي نصيرٌ لك في هذه المحنة. سأقطع عنك الحبال إذا شئت، وستشاء، فتمضي حتى تأتي دمشق، فترفع دعواك إلى الخليفة معاوية بن أبي سفيان. وإني لأرجو لك فوزاً، فإذا فزت فاذكر أخاك عامراً بالخير.

هنا لم يبق نصر يستطيع سكوتاً عن أخطر شيء يجب أن يتأكّد منه. قال للحارس:

– شكراً على مروءتك يا أخي عامر. لكن كيف تُسمع دعواي إذا كانت سعاد قد طلّقتني.

– يتحدّثون بأنّ امرأتك قد جُنّت، فلا أصدّق أنها طلّقتك. وهب أنّها طلّقتك، فلا معنى لهذا الطلاق وقد حصل بإغراءٍ أو بتهديد. فلنسرع. يجب أن لا نفرّط بالوقت.

واستلّ الحارس من وسطه سكّيناً راح يقطع بها الحبال عن نصر.

ونصر يبتسم في سرّه لهذه الطمأنينة التي هبطت على قلبه حين سمع كلام الحارس. ثمّ فكّر في ملتمسٍ لم يكن له بدّ من التماسه. فكّر طويلاً، ثم قال بعد جهد:

– إنّ الطريق إلى دمشق بعيدة. فهل لديك، يا أخي عامر، بعض الزاد تزوّدني به؟

– لدي دراهم يسيرة أعطيك إياها. ودسّ الحارس يده في جيبه. فأطلع ما فيه وسلمه إلى نصر، واستأنف كلامه: لو كان معي مال أوفر لما أمسكته عنك. لكن هيهات، وهذا الوالي.. بقي هذا الشواء، لا تنس أن تأخذه. وامضِ الساعة، امضِ، فارفع الدعوى على ابن أمّ الحكم لعلّك تستردّ زوجتك. أمَا نحن فلعلّنا نظفر، بعد هذه الفضيحة، بعزله عنّا. ولا تنسَ أن تأخذ هذه الحبال أيضاً لئلا توجد هنا فيرى أنّها مقطوعة بسكين.

قال نصر وقد لفّ الحبال وحمل الشواء: لو أعطيتي هذه السكّين أيضاً لزدت لك شكراً. لا بدّ لي من شيءٍ من سلاح. وتذكّر، نادماً، أنّه دفن قوسه ونشّابه في موضعٍ لا وصول له إليه الساعة، فدفع إليه عامر بسكّينه، فطوّقه نصر بإحدى ذراعيه معانقاً، وقال له:

– كنت أظنّكم جميعاً، معشر الجنود، عبيداً لابن أم الحكم، أتخم ضمائركم حتى ماتت على يديه، غير أنّي علمت اليوم أنكم مظلومون. وأنّ الدولة تضرب المظلومين بالمظلومين. وأنا، يا أخي، لا أيأس من النخوة والخير في المظلومين... لكن قل لي يا عامر: كيف تصنع إذا طلبني الوالي غداً فوجد أنّي تمكنت من الفرار؟ أفلا تقع عليك الشبهة؟

أجابه الحارس مربّتاً على كتفيه:

– امضِ، امضِ، لا عليك. في مثل هذه الليلة التي ذهل فيها الجميع ابتهاجاً بعرس الوالي، نستطيع أن نعتذر عن هربك بألف عذر.

فاندفع نصر من الخيمة التي كانت سجنه، مارقاً مروق السهم. اندفع شبحاً سرّياً غامضاً، فاتّحد بأشباح الليل وتوارى. وكان وهو يهبّ في سعيه هبوب الريح، لا يتمالك أن يلتفت وراءه فيشاهد ضوء النيران في مخيّم الأمير، وتأتيه أصوات العرس - هذا العرس الذي بات صداه مناحةً في ضلوعه.

الفصل العاشر

غلب سعاداً الإعياء في هذا الموضع الذي وُضعت فيه من خيمة الوالي الخاصة، فانتهت بأن أغمضت أجفانها مهدودة القوى. رقدت في الحبال التي رُبطت بها مخافة أن تهرب، وكان رقادها متخماً بالرؤى المتشابكة التي لا أول لها ولا آخر.

على أنها قبيل الصباح عرضت لها فجأةً، في غمار هذه اللوحة المشوّشة من الأحلام، رؤيا واضحة منفردة. أبصرت نفسها في فلاة في ليل مظلم، ونصر إلى جانبها تحسّه يتنفس في وجهها. فطوّقته بذراعيها وأسبلت أجفانها الطويلة الأهداب تنتظر قبلته وتتوقّع أن يبادرها بكلمة فتسأله معاتبةً: هل طلّقها حقاً، وكيف يجد نفسه مع هذه الرومية البضّة الشقراء التي رضي بها زوجةً جديدة؟ فيقسم عندئذ مغرورق العينين بالدموع أنّ ذلك دَسٌّ ملفّقٌ وبهتانٌ مصنوع... إلاّ أنّ سعاداً لم تشعر، على حرارة انتظارها، بشفتي نصر مسّتا شفتيها. بلى، شعرت بذراعيها تفرغان، فتحت عينيها ولم تر نصراً. فلمسته بذراعيها فمسّت بهما شخصاً أدركت فوراً أنه غيره. فارتدّت مذعورة. وإذا بذلك الشخص يلوّح لها في ظلام

الليل بعقدٍ من جوهرٍ مضيء، ويدنو مصطنعاً اللطف ليجعل العقد في عنقها. فصدّته عنها. ومسّ الجوهر أصابعها فإذا هو جمرٌ محرق، لا جوهر! وشاءت أن تصيح فلم تستطع إلى إخراج صوتها اللاصق بسقف حلقها سبيلاً. ونضح جبينها عرقاً. واستيقظت يابسة اللسان تشعر في حلقها بطعم رديء.

في هذه اللحظة، كان الأمير ابن أم الحكم يعود إلى خيمته بعد أن شارك الجميع في عرسه حتى همّ الصباح بالبزوغ، مجتهداً أن يدلّ على ما عنده من روحٍ شعبية! وقد أبى أن يسقي الخمر ليثبت مدى تعلّقه بالدين! فما عسى أن يريد الناس منه أكثر من ذلك؟

وكان ابن أمّ الحكم، وهو يمشي - بل يتدحرج - إلى خيمته بجسمه المثقل أكلاً، لا يشتهي شيئاً كأنْ يخلو إلى هذه الزوجة الجديدة التي جُنّت، على أنّ جنونها - كما قالت أمها - طارئٌ وقتيّ سرعان ما يزول.

قال لها وقد توسّم الرعب في حدقتي عينيها حين أبصرته يمشي نحوها بوجهه السمين كأنه متورّم، وبطنه المسترخي كأنه ضرف حُمِّل فوق ما يسع من ماء:

- لم يكن بودّي أن تكون عليك هذه الحبال، يا سعاد. لكنك عاندت عناداً ليس له موجب. وأظنك قد ثُبْت إلى رشدك، فما أجدرني بتقطيع هذه الحبال عنك. ولقد قصدت لك الحرير والذهب لا الحبال.

فلم تقل شيئاً. وانصرف هو إلى إتمام وليمة الليلة بما بقي ناقصاً. فهذا الطعام الذي يكظّ جوفه لا بدّ له من نقع. وأخرج من مخبأ في

الخيمة كوزاً جرع منه سرّاً ما تحاشى أن يجرعه جهراً. ثم مدّ به إلى سعاد فحوّلت عنه وجهها مشمئزّة.

- لا تشربي إن كنت لا تشائين. أنا أشرب عنك يا صغيرتي.

وضحك كمن أعجبته نكتة بارعة فريدة، وأفرغ الكوز وحذفه إلى ناحية. ثم مال على سعاد، وسمع أنفاسها تسري مزدحمةً، واختلج لطيب رائحتها. فشاعت في كيانه رغبةٌ تدعوه إلى تقبيلها.

وأدركت غايته فقالت، وهي تكبت امتعاضها تحت أنفاسه المثقلة برائحة الخمر ودسم الطعام:

- أترضى، أيها الأمير، أن يقال إنك قبّلتني وأنا مقيّدة؟

وقهقهت في وجهه قهقهةً وقحةً ما كان يتصوّر أن تصدر عن مثل هذه البنيّة. وراح يقطع عنها الحبال وبيده ارتعاشة عصبية.

فما أحست بنفسها حرة طليقة حتى وثبت على قدميها فابتعدت عنه نافرةً نفرة الغزال في خفّةٍ ورشاقة، مستمرّةً في تلك القهقهة الوقحة التي استفزّته. فتبعها فعثر بكوز الخمر الفارغ، وأوشك أن ينهار كعمودٍ ضخم. فلجّت هي في قهقهتها. وتبخرت من رأسه النشوة، فأطرق مذهولاً صابراً عليها حتى تفرغ من هذه النوبة الجنونية من الضحك الصاعق، ثم قال لها وبطنه يرتجّ لشدّة انفعاله:

- سعاد! إنّك امرأتي. وأنا والٍ من ولاة الدولة، فهل علمت ذلك؟

وأفرغ في نبرة صوته رنّة وعيد، وقلب بيده السكّين التي قطع بها حبالها. لكنّ ذلك لم يُجدِ شيئاً سوى أن أحدث لها انفجار نوبةٍ مستأنفةٍ من القهقهة رفّت لديها أجفانه رفيف من طُرفت عيناه بلطمٍ قاس.

ورجع إلى الملاينة والملاطفة. قال لها وكأنّه يستأنف الكلام من حيث انقطع:

- ثم هل عرفت، يا صغيرتي، ما عندي لك في خزائني من عقود جوهر تليق بهذا العنق الغزاليّ العاجيّ؟

فوجمت سعاد بغتةً وتذكّرت الرؤيا. وظنّ ابن أم الحكم وجومها انتظاراً، فأسرع إلى صندوقٍ في الخيمة مرصَّعٍ بلآلئ البحرين، أطلع منه عقدَ جوهر مضيء.

فصرخت: أبعد عني هذا الجمر الواهج المحرق.

قال وهو يتعجب لهذه التصورات التي تمرّ برأسها:

- إن كنت لا تحبّين الجوهر فخذي الذهب.

وعاد فجأةً فجاء بين يديه بحفنةٍ من دنانير ذهبية: دماء استُقطرت من شرايين الرعية، وجمدتً إلاّ ما تبعث به من بريق. فمدّت سعاد يدها فتناولت ديناراً وضعته بين أسنانها وعضّت عليه، ثم تفلته أرضاً وبصقت في أثره كأنّما تنظف فمها من طعمٍ كريه. وقالت:

- أيؤكل هذا؟ فأيّة حاجة لي فيه؟

واستأنفت قهقهتها المريبة وابن أم الحكم يعجب من أين تغرف هذا الضحك الرنّان المتحدّي كلِّه، ويقول في سرّه:

- قد تكون حقّاً مجنونة!

وهنا طرق سمعه صوتُ خطىً تقترب من الخيمة، فأمال عنقه وأعار أذنه، فارتفع، بعد لحظة، صوتُ الحارس عامر يقول من على باب الخيمة:

– مولاي! مولاي! هذا البدوي الذي كان عندنا معتقلاً قد اختفى دون أن يترك أثراً.

صاح ابن أم الحكم وقد ازدادت رقبته غلظاً في الحال:

– ويحكم! وكيف اختفى؟ وأين؟

– لا أدري يا مولاي. كان في موضعه ليلة أمس حين حملت إليه العشاء. وأظنّ أنّ عرسكم المبارك شغلنا جميعاً، فانهمكنا في طيّباته ومباهجه حتى استطاع صاحبٌ لهذا البدوي، من أهل هذا الحي، أن يندسّ إلى خيمته فيفكّ حباله فيهرب.

وسعاد تصغي خلال قهقهتها. فتعلم هذه المرّة، بيقينٍ لا تداخله ذرّةٌ من شك، أنّ نصراً كان لا يزال سجين الوالي، فهو بالتالي لم يطلقها و لم يبعها بمال و لم يلتمس عفواً ليهرب. واستمرّت مغرقةً في قهقهتها، إلاّ أنّها أصبحت قهقهةً تفضح برغمها ما تفجّر في قلبها من ينبوع غبطة. فلوّح ابن أم الحكم في وجهها بسكينه التي لمعت شفرتها لمعاناً تكسّر على البريق المتحدّي من عينيها. وهرول الوالي الضخم مغبرّ اللون إلى خارج الخيمة – وقد خفّ فجأةً ثقل جسمه – ليرى كيف استطاع هذا اللعين نصر أن يفلت. وفكّرت سعاد في أن تغادر الخيمة هي أيضاً فتفرّ لاحقةً بنصر. غير أنّها شاهدت رجال ابن أم الحكم يضطربون في المخيّم اضطراباً لا سبيل معه إلى الخروج دون أن يلحظها لاحظٌ فيمسك بها. فمكثت في مكانها وقد انفتحت لها كوّة أملٍ تشرف منها على ساحة الخلاص. أصبحت واثقة بأنّ نصراً لم يفرّ إلاّ ليعود فينقذها.

وتصوّرته ضارباً في عرض البوادي بشملته وعباءته وجسمة

الرشيق الحركات. ورافقته بعين الخيال يسلك المخارم الخفيّة خشية أن يقع في قبضة الوالي مرّةً أخرى. على أنّها لم تستطع أن تتصوّر أين يقصد وأيّ عمل ينويه.

... لفظ ابن أم الحكم على حاشيته وخدمه، ساعة خرج إليهم من الخيمة، كلاماً شديد الغلظة، ولحيته ترقص ارتقاصاً مع سفلى فكّيه التي بدت كأنها توشك أن تنخلع. فقد أُصيب حقّاً بجرح بليغ في صميم كبريائه التي غُرست في طبعه وزكّاها منصب الولايةً. فلمْ يجد إلى التشفّي سبيلاً سوى أن يقول لخدمه وحاشيته ما ارتجله عليه الغضب والقهر. فكيف يبدي رغبته في بدوية زرية يملقها هذا التمليق فتمتنع عليه مجنونة أو متذرّعة بالجنون؟ ثم كيف يلقي القبض على بدويٍّ زريّ، فيهرب برغم ما شدّه به من حبال وبرغم هؤلاء الرجال الذين يعجّ بهم مخيّمه.

وقال له أحد الفرسان إذ هو يرغي ويزبد:

– أتأمر، يا مولاي، أن نطارده فنأتيك به حيّاً أو ميتاً؟

فصاح به ابن أم الحكم محتقن الوجه وعروق الرقبة:

– ألا تخرس، ويحك، يا ابن الفاعلة؟ غفلتم عنه حتى هرب، وجئتم بعد ساعات تتطوّعون لمطاردته، كأنّ هذه الصحراء رقعة كفّ.

فهمس الحارس عامر في أذن رفيقٍ له:

– والله إنها شتيمة في موضعها استحقّها هذا الفارس، لكن من فم غير فم هذا الوالي. تُرى متى يؤخّر ولائم زواجه ويُخرج لنا أرزاقنا؟

أجابه رفيقه بهمسٍ غير مسموع أيضاً:

– ولَمَ لا تقولها له جهراً؟

وفيما يتداول الجنديان بهذا الهمس غير المسموع، ولا يفهمان بأنّ الحقّ إنّما يحتاج إلى من يجرؤ على المناداة به، ارتفع صوتٌ أجشٌّ وقحٌ وقاحة الباطل، صوت العجوز أم سعاد تقول:

- وما عسى أن يفعل هذا الكلب نصر؟ فليمض حيث شاء؟ أفلم تصبح سعاد زوجة مولانا؟

فانتهرها ابن أمّ الحكم وعيناه تقدحان الشرر. وأمرها بأن تأخذ شيخها فتغرب بوجهه ووجهها من حضرته.

فاسترخت حنكا العجوز وصدعت بالأمر بذلك الشعور العبودي الذليل الذي ما يلبث أن يتحوّل إلى شبه غريزة تجعل من صاحبها آلة تتحرّك بزرّ.

والحقّ أنّ ابن أمّ الحكم لم يكن غاضباً ذلك الغضب كلّه، مقهوراً ذلك القهر كلّه، للجرح الذي أصابه في صميم كبريائه وحسب. بل إنّما خشي العاقبة الوخيمة. فهو أدرى الناس بأنه قد اصطنع لنفسه أعداءَ كثراً بمسلكه في الولاية. ولا بدّ أن يلاقي نصر بعض هؤلاء الأعداء فيحملوه على رفع الدعوى إلى الخليفة معاوية. والدعوى صريحة. فالرجل لم يطلّق امرأته، وقد غصبه إياها غصباً. ومعاوية الداهية إذا رأى فرصة يبيّض بها صحيفته لدى الرعية، على حساب أحد الولاة، أسرع إلى اغتنامها.

فكيف يفعل؟ كيف يفعل ابن أم الحكم؟

وهدأت ثورته. وراح ينقّل فيما حوله نظراً ذاهلاً. رأى آثار العرس التي ما تنفكّ ماثلةً شاهدة. فهنا نارٌ كانت موقدةً للزينة، وكان لسان لهيبها يندلع ليلة أمس أحمرَ لعوباً في الهواء؛ وهنا نارٌ كانت موقدةً

تحت قدرٍ عظيمة وُسِقت باللحم. وهنا عُلِّقت إحدى الذبائح المكتنزة. فماذا بقيَ من هذا كله؟ رمادٌ وسواد! فهل يكون هذا آخر عرسٍ قبل الفضيحة القاضية؟ وهل يتسنّى له بعد اليوم أن يتزوّج وهو والٍ، فيختار من شاء من الصبايا الناضرات ويدفع المهور الغالية، وينفق عن سعة وفيض مما يحتلب من هذا الضرع السخيّ، ضرع الولاية برغم أنّها ولايةٌ عجفاء على البادية.

إنّ في هذا كلّه مجالاً للتفكير. وأحسّ ابن أمّ الحكم بأنّ هذه الدنيا، دنيا النعم، التي شادها مع ولايته توشك أن تنهار به. وأيّ شيءٍ يكون ابن أمّ الحكم وأمثاله إذا عُزلوا عن الولايات وجُرّدوا من الوظائف؟

فيجب أن يُحال بين نصر والوصول إلى معاوية إذا أمكن الأمر. لكنّ فوق ذلك يجب... وهنا أمسك ابن أم الحكم، فلم يشأ أن يُعلن حتى لنفسه التدبير الذي عزم عليه.

ثم أمر، ولا تزال في صوته نبرة الغيظ، بأن يتأهّب الجميع للرحيل، فقد انتهى الصيد.

وقال عامر حارس المخيّم الذي أطلق نصراً:

– طبعاً انتهى الصيد، تزوّج الأمير... بإحدى الطرائد!

الفصل الحادي عشر

بعد أن انطلق نصر من معتقله، لم تكد تنقطع عنه أصوات العرس وتغيب عنه النيران حتى ازدادت وحشته في هذا الليل الذي يلفّه، وضغط على نفسه تشاؤمٌ ثقيل. فأين هو من دمشق التي يقصدها؟ وما عدّته ليطوي هذه الشقّة البعيدة المدى؟ سكّين وشيء من شواء... ثم كيف السبيل إلى المثول بين يدي الخليفة معاوية بن أبي سفيان بعد إذ يصل إلى دمشق؟ وهل يسكت ابن أمّ الحكم عن فراره فلا يرسل في طلبه فرسانه؟

وطفقت ترنّ في أذنه الأصداء وتتمثّل أمام عينيه الأشباح، ومعظمها أصداء خيلٍ تضرب الأرض بحوافرها وأشباح فرسانٍ يهمّون به. فيضع يده على مقبض هذه السكّين التي منحه إياها الجندي عامر، عازماً على غمسها في أول مهاجم يتصدّى له. وربما أتته من بعض الشعاب أصوات الذئاب تعوي من جوعٍ فطغت في أذنيه على أصداء حوافر الخيل التي توهّمها تعدو في أثره، وقال لنفسه كمن استأنس بهذه الأصوات الوحشية: لا، لست أخشاك، أيتها الذئاب، بمقدار ما أخشى ابن أمّ الحكم وزبانيته. فأنت لا تقتلين إلاّ لعلّةٍ واحدة هي الجوع!

وذلك كلّه حثّه على الانطلاق السريع حتى اغتسل جسمه بما دفق من عرق، وحتى برقت له تباشير الصبح. فرأى على بعض البعد بقعةً أشبه بالواحة في هذا البسيط الجديب من رمل. ورأى أشجال نخيل، وخياماً منصوبة. فخُيّل إليه أن تعبه وظمأه قد مثلا له سراباً خادعاً. لكن أين الوقت الآن من ميعاد السراب، وقد علم نصر أنّ السراب يكون ظهراً في معمعان القيظ حين يلهث الرمل بشبه لهبٍ يتوهّج شعاعاً رقيقاً في الهواء.

وإذن فليعرج على هذه الواحة يصيب فيها قسطاً من ماءٍ وطعام وهنيهةٍ من راحة، ثم يستأنف المسير. غير أنّه ما كاد يعزم حتى استفاق فيه الحذر الذي يصبح طبيعةً ثانية في كلّ هاربٍ يعرف أنه مطلوب. وتمنّى لو يصادف إنساناً يستنبئ منه نبأ هذا المكان ومن فيه، فلا يكون انصرافه اليه انصراف الطريدة إلى فخّ. لكن ليس في مرمى نظره حوله بشرٌ يستطيع أن يتلقّى منه مثل هذا النبأ. فلا بدّ إذن من شيءٍ من المغامرة مع الحذر. وسعى نصر شطر الواحدة مفتوح المنخرين يتشمّم الهواء كأنّما يستطيع أن ينشق فيه رائحة الخطر إن كان ثمّة من خطر...

إلى أن أصبح على كثبٍ من الموضع. فظهر له رجلٌ ما إن لمح نصراً حتى شخص إليه يتفرّس فيه تفرّس مستريبٍ، ثم تقدّم إليه وقد تمهّل نصر، هو الآخر، في مشيته فقال له بصوت لا يخلو من جفوة:

– عم صباحاً... ونظر إلى الرجل نظرة متأمل وجمدت عيناه على وجهه فبدا له أنّ هذه القسمات التي يطالعها الساعة أمامه تستفيق في ذاكرته من غفوةٍ طويلةٍ في زاويةٍ منحذفة وكذلك بدا الرجل وهو يتفحّص وجه نصر. ثم التمعت في عينيه وشفتيه ابتسامة، فقال:

– أكبر ظنّي أننا تعارفنا من قبل في موضعٍ ما.

أجابه نصر:

– إذا صحّت ذاكرتي فأنت صاحب الناقة والبعير اللذين شردا يوماً فلحقا بقطيع يرعاه فتى من بني عذرة، ثم جئت تطلبهما، لكن عدت وقد تركتهما منحةً للفتى.

قال الرجل: لم تخطئ. وأنت هو الراعي نصر!

صاح نصر: أخي عروة! يا للمصادفة السعيدة!

وتعانقا عناق الأخوين.

وقال عروة وهو يأخذ بيد نصر فيدخل به الواحة:

– عذراً، يا أخي، إذا كنت قابلتك بارتياب. فنحن هنا لا نخلص من جنديٍّ يزورنا من جنود هذا الوالي المستهتر حتى نتعرّض لزيارة أعرابيٍّ سارق، أو ممهّدٍ لغزوٍ يأتينا ليلاً.

أجابه نصر:

– ثق أني لا هذا ولا ذاك، وإنما ساقتني إليك، كما قلت، مصادفةٌ سعيدة وأنا ساعٍ في شأنٍ من شؤوني.

قال عروة:

– أعرفك يا نصر فتىً كريماً. ولم يخطر لي قط أن أرميك بشبهة... تعالَ، تعال إلى ماء بارد وبعض طعام، ثم حدّثني ما فعل بك الزمان.

ومشى الرجلان إلى خيمةٍ من الخيام، فشرب نصر وأكل وهو يفكّر في هذا التوفيق الذي لقيه على غير انتظار، ويحسّ بالأمل يتعاظم في نفسه، ويفكّر بهذه السمعة السيئة التي ازدوج بها اسم ابن أمّ الحكم.

وأعاد إليه عروة القول بعد أن فرغ من طعامٍ أكله على عجلة:

– والآن، حدّثني ما فعل بك الزمان يا نصر، هل تزوّجت فتاتك التي أحببت.

أجابه نصر:

– تزوجتها. ثم حدث ما يُحزن ويُغضب.

فردّ عليه عروة وقد اتّسعت عيناه:

– وماذا حدث؟ هل أفلح في كيده لك ذلك الفتى الجلف؟ ففهم نصر أنه إنما يعني فاتكاً. فأجابه:

– لا! ذلك غاب من الطريق إلى الأبد.

– وإذن؟

– كادت لي امرأة عمي وهذا الوالي الذي ذكرته فوصفته بالمستهتر. خرج إلى الصيد في نواحينا، فذهبت العجوز الدنيئة لمقابلته بابنتها. فما وقعت عليها عينه حتى أرادها لنفسه. جلدني وسجنني بحجّة أنني نفّرت طرائد الصيد من طريقه، ثم سعى في أن يرضيني بالمال ويزوّجني جاريةً من جواريه، سبيّة روميّة مسكينة. فأبيت. فأمسكني في سجنه، وعقد لنفسه على امرأتي. وأنا الساعة هاربٌ من سجني بعد أن حضرت ليلة أمس... عرسه.

وغصّ نصر بآخر كلمة.

قال عروة وقد كزّ بأسنانه:

– يا للفاجر! فماذا تنوي أن تفعل الآن؟

– أنا في الطريق إلى دمشق أشكوه إلى الخليفة معاوية بن أبي سفيان.

– نِعم ما تصنع! وربما لم يكن معاوية أفضل من واليه، لكنّك

تفضح ابن أم الحكم على كلّ حال. فإذا لم ينصفك منه معاوية فضحته هو الآخر.

قال نصر وقد امتقع لونه لخاطرٍ مرّ في ذهنه:

- شيءٌ واحد أخافه: أن تكون امرأتي رضيت بطلاقي نزولاً على إغراءٍ أو تهديد.

- مثل هذا الطلاق لا يكون له معنى.

فقال نصر وقد راجع نفسه:

- بل أرى الطلاق احتمالاً بعيداً جداً. وأسمع أنّ امرأتي تصطنع الجنون دفعاً للوالي عنها. والآن يجب أن لا أبطئ عن المسير.

قال عروة:

- أجل، يجب أن تسرع. لكنّي أراك بلا زاد ولا مطيّة، ودمشق ليست من هنا على رمية حجر. فقد تهلك جوعاً وظمأً قبل وصولك إليها على رجليك في أسابيع. انتظرني إذن قليلاً.

ومضى عروة هنيهةً، ثم عاد بجوادٍ ضليع، عليه خرجٌ وزاد. ثم قال لنصر:

- هبةٌ لك مني، يا أخي؛ فاقبله قبولك للناقة والبعير. واركبه إلى دمشق وأجهده في الجري فإنه يطيق.

فغمرت الابتسامة شفتي نصر وترقرقت في عينيه الدموع، لا يدري ما يصنع إلاّ أن يقول لهذا الرجل الأريحيّ أبلغَ كلمةٍ يقولها امرؤ في مثل هذا الموقف:

- شكراً.

فأجابه عروة:

– كلا، لا شكر. فحقٌّ أنّك تسعى في شأن يهمّك، لكنّ الشكوى على ابن أمّ الحكم تهمّنا جميعاً. فنحن هنا في هذه الواحة نكابد من ضرائبه وتطاول جنوده وتقاعسه عن حمايتنا من الغزو شرّاً شديداً. لقد حلمت، يا أخي، حلماً لهذه الصحراء التي نتيه فيها، شئت إخراجه إلى الوجود في حيث لا يستحيل الأمر. سألت نفسي: علامَ لا نتعلّم عيش الحضر؛ فهو خيرٌ من عيش البدو، خيرٌ من هذا التشرّد الأبدي في طلب الماء والعشب. وكنت شهدت على حواشي الصحراء – ممّا يلي جهة دمشق – بيوتاً تُشاد عند بئرٍ من عطاء الطبيعة أو عند مياهٍ من الشتاء تُحقن في أحواضٍ كبيرة، فيجتمع الناس عليها في قريةٍ صغيرة يخصب فيها الزرع ويدرّ الضرع. وفهمت أنّ معاوية لا يكتم رضاه عن مثل هذا التحضّر. فأقبلت على الماء هنا، وأهله عشيرتي، فقلت لهم: نصلح ماءنا ونختزن معه شيئاً من مطر الشتاء فنسقي ونزرع ونتعهّد المواشي مقيمين لا نحطّ الرحال ولا نشدّها. وننهج سبيلاً كسبيل سميّي عروة ابن الورد وصعاليكه إذ كان يصيب كلَّ واحدٍ منهم نصيباً ممّا يُحصّلونه جميعاً. إلاّ أنّنا لن نغزو غزواً شأن عروةَ وصعاليكه. بل نستنبت رزق الأرض ونحتلب خير الضرع. فقالت لي العشيرة: ما أغرب ما ارتأيت! أوما تدري أنّ النخلة مربط الذلّ؟ فأنت مكرَهٌ على البقاء بجانبها، لا تستطيع ذهاباً عن ضيم ينالك وظلم ينزل بك. فهزأت بعقولهم، ووُفّقت إلى إقناعهم. فماذا كان؟ جاءنا هذا الفاجر ابن أمّ الحكم لا يشبع من ضريبة، ولا تكفّ عنا جنوده، ولا يحوطنا من غزو من يطمع في رزقنا. رجعنا إليه قال لنا: "أعجب مما أنتم عليه. فكيف تكونون ضيعةً ثم لا تكونون إقطاعاً لأحد الأمراء؟"

فهذا ما يبلغه آخر فهم الرجل. إمّا أن يتصوّرنا بدواً رُحّلاً نعاني قسوة الصحراء أو عبيدَ أرضٍ نعاني سوط سيّدِ إقطاع، وإمّا أن لا يتصوّرنا شيئاً. غير أنّا نأبى أن نبقى في حدود ما يرسمه لنا تصوّر هذا الفَدْم الغبيّ. وأرجو أن نفلح، وإلاّ فنكون قد زرعنا بذوراً للمستقبل... لكن عفوك. أحسب أنّي أبطأت بك وأطلت عليك الحديث في أمرٍ ما أظنّه يعنيك جداً. فامضِ الآن على بركة الله.

قال نصر وهو ينظر في عيني محدّثه، وقد عظم به إعجابه كيف فتق ذهنه هذا الإبداع:

– ومن زعم لك أنّ الأمر لا يعنيني جداً؟ سأسرع إلى دمشق كما تقول، فاطلب لي أن أُوفّق. وعسى أن نخلص من ابن أمّ الحكم. وسترى أنّي أعود إليكم فأمكث معكم في هذه الواحة أعمل عملكم، إذا رضيتم بي.

– وكيف لا نرضى بك؟ وأرجو أن تكون يومئذٍ قد فزت بامرأتك.

وتعانق الرجلان عناقاً طويلاً.

ثم وثب نصر إلى ظهر الجواد ولكزه فانطلق به. وتلفت يلوّح بيده، مودّعاً صاحبه آخر الوداع، فسرّه مشهدٌ لم يتنبّه له من قبل: مشهد الصبية الصغار وقد خرجوا صباحاً من الخيام فوقفوا يشيّعون هذا الفارس الغريب بنظراتٍ من عيونٍ سوداء برّاقة، وأسنانٍ تنحسر عنها الشفاه بيضاء بياض الحَليب النقيّ. شدّ ما تفاءل نصرٌ خيراً بهؤلاء الأطفال. ثم لم يملك أن انتقل انتقالةً بالفكر إلى ذلك الحارس الذي قطع عنه حباله، ثم إلى هذا الرجل الأريحي الذي وهب له الجواد. فأحسّ أنه ليس فريداً وحيداً في كفاح هذا الأمير الظالم. وتمتم في

سرّه: سبحان الله كيف يجمع الظُّلاّم على أنفسهم!

وطار الجواد - كأنّما رُكّبت في أرجله الأجنحة! - ينهب به المسافات المترامية بين البادية ودمشق. ونصر لا يقف إلاّ على ماء أو عشب ريثما يسقي ويقوت جواده، ولا يتمهّل إلاّ ليتناول لقيماتٍ من زاده يسدّ بها بعض جوعه.

وكان نصر - وهو خارجٌ من رَحم الصحراء قاصدٌ دمشق لأول مرة - يحسّ في قلبه خفقاناً حلواً كلّما لقي في الطريق إنساناً، فاستنبأه، فقال له: إنك تدنو من دمشق، فواصل سعيك في هذا الصوب الذي تسعى فيه. وقد سمع نصر العجائب عن دمشق. ففيها نهرٌ غزير الماء ينفجر فيجري حلالاً زلالاً للشاربين من حيوانٍ وإنسانٍ وشجرٍ ونبات. وربما جُرّت منه مياه إلى الأحياء فتدفّقت على السبل بين البيوت، وفي باحات القصور. وفي دمشق أيضاً بساتين الغوطة التي تكسو بقاعاً واسعة متّصلة من الارض، فتجعل منها رقعةً واحدةً خضراء تترامى على مدى سَفَر العين. ولقد سمع نصر ببدويٍّ قبله أشرف على دمشق فلمّا رآها هتف: هذه هي الجنّة! ثم قفل راجعاً وهو يقول: لا تُدخل الجنّة مرتين... خَشي أن يُحرم جنّة السماء إذا دخل جنّة الأرض. وابتسم نصر لذكرى هذا البدوي. أما هو فسيدخل دمشق الجنّة، وسيستردّ سعاد التي هي جنّته، ولن يُصدّق أنّ دخول الجنّات في الارض يمنع من دخول جنّة السماء.

وجاء مساءٌ استشعر فيه نصر أنّ الأنسام أخذت تسحب على مُحيّاه ذيولاً مبتلّةً بالماء، وأنّ الهواء حوله تفوح منه روائح الخضرة.

ثم ما لبث أن أطل على قبابٍ ذاهبةٍ في الجو، وأغصانٍ مورقةٍ

ناضرة. وسمع الجداول تنصبّ مصوّتةً كأنها تثرثر وتتشاحن في حديثٍ خطير. فعلم أنّه في دمشق! وما كاد يجتاز باب الجابية - هذا الباب الذي فتحته المدينة إلى جهة البادية - حتى أقفله الحارس وراءه مع تكاثف ظلمة المساء.

قال نصر لرجلٍ مارٍّ في الطريق بعد أن نزل عن جواده ووقف إلى ناحيةٍ يفكّر فيما يصنع:

- ألا تدلّني، يا أخا العرب، على قصر أمير المؤمنين؟

فنظر الرجل إلى هذا الأعرابي في ثيابه الزريّة. ثم نظر إلى الجواد الجميل الذي يمسك عنانه بيده. فخطر أول ما خطر لهذا الدمشقي أن يعقد صفقةً تجاريةً صغيرة يفوز فيها بربحٍ على حساب سذاجة الأعرابي. قال له:

- هذا الجواد ملكك يا أخا العرب؟

أجاب نصر وقد ارتاب للسؤال المفاجئ:

- نعم هو ملكي، ولَمَ يعنيك هذا؟

قال الدمشقي:

- فهل تبيعه؟ إنّي طالما اشتقت أن أقتني جواداً عربياً من البادية.

قال نصر غبّ هنيهةً من تفكير لم يكن فيه أقل خبثاً من الدمشقي:

- لا أبيع الجواد من سواك إذا احتجت إلى بيعه. لكنّي سألتك أن تدلني على قصر أمير المؤمنين فما سمعت منك جواباً.

قال الدمشقي وما انفكّ منصرف الذهن إلى الصفقة التجارية:

- قصر أمير المؤمنين، قصر الخضراء، لا يخطئه أحد... أراك غريباً في البلد، وأفهم أنك تطلب المثول بين يدي الخليفة، وسيطول عليك

الوقت قبل أن تظفر بالدخول عليه. ولست - على ما أراك - في حالة تُمكّنك من الإنفاق. فأنصح لك أن تبيع هذا الجواد لرجلٍ مثلي صاحب ذمّة ودين، وإلا أكلك تجّار دمشق.

أجابه نصر:

- الأمر كما تقول. وإذا دللتني على مكانك، قصدتك، فبعتك الجواد يوم أحتاج إلى بيعه. لكن قل لي بالله: كيف السبيل إلى مقابلة أمير المؤمنين، فإنّي ما جئت إلاّ لأقابله في شأنٍ ملحّ.

أجابه الدمشقي، وعينه على الجواد الذي وقف بَليلَ الغرّة بالعرق، فاتحاً منخريه للهواء الرقيق:

- إنّي أنصح لك أن لا تؤجّل بيعه. وقد تقصدني يوم تضطر إلى بيعه، فلا تجدني، أو لا تراني مستعدّاً للشراء.

قال نصر، وهو يكبت ابتسامةً همّت بالارتسام على شفتيه لشدّة إصرار هذا التاجر:

- نبّئني، يا عبد الله، كيف أستطيع مقابلة أمير المؤمنين، وسأعتبر منّتك هذه داخلة في ثمن الجواد، فلا آخذ منك يوم أحتاج إلى بيعه إلاّ ما يكون ميسّراً عندك من مال.

فبرقت عينا الدمشقي وجرع الريق الذي تحلّب في فمه، ثم قال لنصر:

- هيّا نمشِ معاً.

فسار نصر يتلّ جواده، وسار الدمشقي، في زقاق.

قال نصر:

- وهل يسكن الخليفة في مثل هذا الحي؟

أجابه الدمشقي:

- كلا، ولكنّي أدلّك على مكاني لتأتيني يوم بيع الجواد!

أجابه نصر وقد غلبته الابتسامة هذه المرة فتعلّقت بشفتيه ساخرة:

- حسبتك ستدلّني على هذا القصر الذي سمّيته قصر الخضراء، وترشدني إلى طريق أقابل منه أمير المؤمنين.

ودار نصر عازماً على الرجوع. فقال له الدمشقي وقد شعر بأنّه لن يستطيع استدراج الأعرابي إلى أبعد من ذلك:

- عد، عد يا أخا العرب. ومكاني على قيد خطوات من هنا. لقد أصبحت إذن تعرفه. اسأل عن أبي فلان... أمّا أمير المؤمنين فإنّ له يوماً يقعد فيه للناس. وما عليك حين تأتي القصر إلاّ أن تطلب الإذن لك من الحجّاب.

فشكر له نصر هذا الإرشاد وتركه. وكانت آخر كلمة زوّده بها الدمشقي:

- لا تنسَ وعدك ببيع الحصان لي يا أخا العرب. إنّ وعد الحرّ دين.

فأجابه نصر قاذفاً بكلماته وراء ظهره:

- هو ذاك، فاطمئن، اطمئن!

ونام نصر، تلك الليلة، وجواده تحت القمر والنجوم. فما بزغ الفجر وطفق الناس يضطربون في الشوارع حتى كان أعرابيٌّ، يقود جواداً، يستوقف بعض السابلة يسألهم عن قصر الخضراء. ولم يكن الاهتداء إلى قصر معاوية صعباً. وشخص نصر لدى الباب الخارجي يومئ إلى الحارس الذي تحوّل نحوه ببطء وزهوّ، وقلب نصر يخفق خفوق من يواجه موقفاً يعلّق عليه الأمل ولا يستبعد الخيبة.

الفصل الثاني عشر

تقدّم الحارس من نصر وعلى كتفه رمحٌ مسنونٌ طويل، وإلى وسطه سيفٌ مرصّع القبضة في غمده، فأثبت عينيه، تحت حاجبيه الكثيفين، في وجه هذا الأعرابي الشاحب الزريّ اللباس. ثم قال له وفي صوته نبرة انتهار:

– ما شأنك؟

أجابه نصر وقد أحب أن يستوثق من شيء:

– قل لي بالله عليك، هل أنت دمشقي؟

فلم يملك الحارس أن يبتسم لهذا السؤال الذي كشف له فوراً عمّا لا بدّ أن يكون هذا الأعرابي عاناه في دمشق. أجابه:

– كلا! بل رجلٌ من عرب اليمن.

فاستأنس بذلك نصر، واطمأن إلى ابتسامة الحارس، وقال له بعد تنهّدة ارتياح:

– وأنا مثلك، أصلي من عرب اليمن. أعرابيّ ضعيف من بني عذرة من البادية. لحقتني ظلامة ممّن لا قدرة لي عليه. فلمّا ضاقت بي الوجوه قصدت أمير المؤمنين أرفع إليه شكواي. وقد لقيت أصحاب

مروءة شجعوني وأعانوني. فهذا الجواد الذي تراه خلفي منحةٌ منحنيها رجلٌ لأطوي به المسافة بين البادية ودمشق، واتّفق لي أن عرفت حارساً مثلك أسدى إليّ معروفاً عظيماً. بقي أن أجد عندك مثل هذه المروءة، وما أظنّني إلاّ واجدها، فتيسّر لي الدخول على الخليفة. وعسى أن أُشفي على يديك جراحاً في قلبي.

قال الحارس وقد تسرّبت إلى نفسه الرقّة لحديث هذا الأعرابي، واستيقظ فضوله لمعرفة ظلامته:

– لو زدتني علماً، يا أخا العرب، بما جئت تسعى من أجله... لكن ما دمت من بني عذرة، وما دمت ذكرت جرحاً في قلبك، فيخيّل إليّ أنّ في الأمر حكاية امرأة وحبّ.

أجابه نصر وقد دُهش:

– إنّك صادق الفراسة، يا أخي. والمرأة امرأتي وأنا أحبها، وهي تحبني، إلاّ أن يكون غيّرها ما حدث.

قال الحارس وهو يشعر أنّه وقع على حكايةٍ يتسلّى بها عن هذا الضجر الذي يلازمه في وقفته الدائمة على باب القصر:

– وما الذي حدث؟

– غصبني الوالي امرأتي. استدرجتها إليه أمها طمعاً بالمال. وحبسني الوالي. وعقد لنفسه عليها وأولم عرساً عظيماً.

ردّ عليه الحارس:

– فإذا كانت امرأتك تغيّرت عليك فلا يبقى معنى لشكواك.

– كلا! عندي يقين أنّها ما زالت على العهد. بل سمعت أنّها تظاهرت بالجنون لتدفع عنها الوالي.

قال الحارس وقد ارتسمت على شفتيه، هذه المرة، ابتسامةٌ كرهها نصر وانقبض لها صدره:

– وهل صدّقت؟ وأيّة امرأة لا تؤثر والياً على مثلك. فخذ مالاً بها، إن استطعت، وأسدل عليها ستراً من نسيان. وبعد، فما المرأة؟ شيءٌ لساعةٍ في فراش؟ لم ألقَ رجلاً إلاّ رأى معي هذا الرأي.

فأجابه نصر متجلّداً على هذه الخناجر التي مزّقت نفسه مع كلمات الحارس:

– أولئك، يا أخي، لا يحبّون حبّاً. ولكن يريدون – كالذي يبصق – أن يتخلّصوا من شيءٍ احتقن فيهم. أو هم، في خير الأحوال يطلبون ولداً.

ثم تحوّل نصر لينصرف وهو فاقد الرجاء الذي عقده على هذا الرجل بعد أن دار الحديث هذا المدار.

فقال له الحارس وقد أنّبه ضميره لشعوره أنه آلم جداً هذا الأعرابي الذي لم يتهيّأ – في زعمه – لمذهبٍ سمت به إليه عيشة الحضر وعوّدته إياه حياة الجندية:

– رويدك، رويدك يا هذا. ما عمل امرأتك – حين اعتصمت بالجنون – غريباً على نساء بني عذرة. وما عملك أنت – حين كددت بين البادية ودمشق – غريباً عليكم معشر العذريين.

فوقف نصر يتجلّى في قسمات محيّاه عرفانٌ عميقٌ للجميل، كأنّما أسدى إليه الحارس بتلك الكلمات منّةً لا تقوّم بثمن.

واستطرد الحارس يقول:

– تريد أن تقابل أمير المؤمنين بنفسك، وليس لك – فيما أرى – أحدٌ يوصل إليه دعواك. فاعلم، إذن، أنّ له خطّة يسلكها في عمل

نهاره. فبعد أن يتناول الغداء الأصغر في الصباح، ويتحدّث حتى تصعد الشمس في قبّة الفلك، يأمر غلامه فيُخرج له الكرسيّ إلى المسجد، فيجلس عليه مسند الظهر إلى المقصورة، ويأذن لعامّة الناس بالدخول. فادخل أنت ساعتئذ واعرض شكواك. وإنّي أنصح لك أن تفتتح كلامك بأبياتٍ من شعرٍ إن كنت تنظمه فإنّ الخليفة يحبّ الشعر من أفواه بني البادية.

- وهل تدلّني على المسجد، يا أخي؟

- هو هنا قريب عند القصر، وكثيرٌ مثلك يأتونه في هذه الساعة، فلا تهتم.

فشكر نصر الحارس شكراً حاراً. وانصرف عنه يقود جواده بانتظار الشمس أن تصعد في قبّة الفلك، وبانتظار القريحة أن تلبّيه بأبياتٍ من الشعر.

وكانت ساعة من العراك بين نصر والأوزان والقوافي، وهو مشغول البال بهذه الكرة النارية التي لم ينفكّ يتلفّت إليها سابحةً صعوداً سبحاً بطيئاً في سماء دمشق. ولم يستطع، على شدّة انفعاله، أن يقتطع من معدن قريحته سوى أربعة أبيات. ثم أدرك أنّ الميعاد زحمه، فأسرع يطلب المسجد. ورأى جمهوراً غفيراً يندفعون اندفاعه، فإذا هم مثله يطلبون المسجد، فاطمأنّ إلى أنّه لن يخطئ موضعه. وطفق يستعيد في سرّه هذه الأبيات التي نظمها على استعجال ليفتتح بها خطابه للخليفة. لكن لم يطل به الأمر في سعيه الحثيث حتى وجد نفسه على باب المسجد. وكأنّه لم يفطن من قبل إلى هذا الجواد الذي يجرّه وراءه، فما يصنع به؟ ربطه إلى ناحيةٍ غير آبهٍ بما يصيبه. ثم دسّ نفسه في

الجمهور، يشقّ الصفوف إلى داخل المسجد فعلَ ذاهلِ العقل. فوكزه رجلٌ أشار إلى نعليه المقطّعتين وأمره بخلعهما وغسلِ رجليه... ما أطولها من قصة! - تمتم نصر في سره. ونزع نعليه، ثم انكفأ نحو ماءٍ يجري قريباً من عتبة المسجد، فنقع به قدميه المغبرّتين نقعةً خفيفة، وعاد يزاحم الناس إلى الصف الأول ونعلاه تحت إبطه.

من ذا؟ تساءل نصر في نفسه، وقد حطّت عيناه على حرسٍ مسلّحين يحيطون بكهلٍ ملتحٍ، مهيبٍ، بدينٍ، كبير البطن، في محيّاه آثار وسامة، ترسل عيناه نظَراتٍ هادئةً نافذة، تتنقّل على الوجوه حتى استقرّت طويلاً على وجه نصرٍ وغرابة هيئته.

فرأى نصر أن يجمع جأشه فيتكلم.

قال كالمبغوت:

- السلام على أمير المؤمنين.

ولحظ معاوية أثر البغتة في وجه الأعرابي وصوته، فحرّك شفتيه بردٍّ للسلام رقيق. وكان معاوية، لدهائه، شديد الحرص على أن يستشعر منه الناس، إذا لقوه، أُنساً وليناً وعطفاً.

فأنشأ نصر ينشده، لا يدري هل يتذكر الأبياتَ كلّها أم تفوته، قال:

معاويَ، يا ذا الحلم والفضل والعقل
وذا البرِّ والإحسان والجود والبذل
أتيتك لمّا ضاق في الأرض مسلكي
وأنكرت ممّا قد أصيب به عقلي
ففرّج رعاك الله عني فإنني
لقيت الذي لم يلقه أحدٌ قبلي
وخذ لي، هداك الله، حقي من الذي
رماني بسهمٍ كان أهونه قتلي!

لقد تذكّر نصر الأبيات كلّها فأحسن تذكّرها. ولقد أرعش صوته في بدء الأبيات ثم استقرّ جهورياً تموج بأصدائه جنبات المسجد. وتهامس الناس بجرأة هذا الأعرابي، وأعجبهم صفاء لهجته، إلاّ متزمّتين في الدين كرهوا أن يجوز إنشاد الشعر في المسجد.

وفيما راح نصر يمسح جبينه الذي رشح بالعرق، قال له معاوية:

- ولكنك لّمحت، يا أعرابي، ولم تصرّح.

فاندفع نصر يقصّ على أمير المؤمني قصته بالتفصيل: كيف أحبّ ابنة عمه سعاداً وأحبّته في مضارب بني عذرة في البادية، فتزوجها، وأمها غير راضية لفقره وطمعها في المهر العظيم. ثم كيف أقبل الوالي ابن أمّ الحكم يصطاد في نواحي الحي، فما وقع نظره على سعاد بتدبيرٍ من أمها، العجوز الماكرة، حتى اشتهاها لنفسه. ثم كيف اتّهمه الوالي زوراً وبهتاناً بتنفير الطرائد فاعتقله وجلده حتى الموت، وسجنه في الخيمة. ثم كيف استدعاه وشاء أن يُذهله عن نفسه بالخمر ويغرّه بالمال ويزوّجه عوض امرأته جاريةً منكودة الحظ من سبايا الروم. ثم كيف ردّه ابن أمّ الحكم إلى السجن وعقد لنفسه على سعاد وأقام عرساً ملؤه البذخ والأبّهة، مع أنّ نصراً لم يطلّق سعاداً ولن يطلّقها إلاّ بطلاق روحه. ثم كيف تيسّر له أن يفرّ من المعتقل فيأتي دمشق يعرض شكواه على الخليفة.

وقد أصغى إليه معاوية وعلائم الاهتمام تتجلّى في قسمات محيّاه. فليست هذه بالشكوى الوحيدة التي يسمعها من سيرة ابن أمّ الحكم - رجلٌ سريع اليد إلى تناول سوطه واستعماله، مبالغٌ في جباية الضرائب وإنفاقها من أصحاب المواشي، وأهل الزراعة، وقليلٌ ما هم

في الصحراء، مبطئٌ في إخراج العطاء لجنوده، نهمٌ في النساء. والدولة، إلى خطر البيزنطيين في الخارج، تعجّ بأحزاب المعارضة في الداخل: شيعة في العراق، وزبيريون متربّصون في الحجاز، وهذه البادية التي يقوم ابن أمّ الحكم على ولايتها أرضٌ خصبة للخوارج...

وطال صمت معاوية. ونصر ينتظر على جمر، والناس ينتظرون. فلمّا حرك شفتيه للكلام كان كلّ ما قاله:

- وما اسمك يا أعرابي؟

- نصر يا مولاي، من بني عذرة.

- امضِ الآن ولا تحاول أن تبرح دمشق.

فخرج نصر، لم يشف غليلاً، وهو يفكّر في ما عسى أن يكون قصد الخليفة بهذا الأمر الغامض. ومضى يطلب حارس القصر الذي لقيه في الصباح، فلعلّه يعينه على فهم ما عجز عن فهمه. وأوشك نصر، لانشغال باله، أن يذهل عن جواده الذي تركه مربوطاً إلى ناحيةٍ في خارج المسجد.

قال له الحارس حين أتاه:

- لا عليك يا أعرابي، إلاّ إذا كنت لفّقت دعواك تلفيقاً. أخال معاوية سيهتمّ لشكواك بنفسه. فلازم دمشق كما أمرك، وتردّد عليّ كلّ يوم، فأنبئك بما يجدّ ويبلغ مسامعي.

الفصل الثالث عشر

وضع معاوية التاج على رأسه (زيّ قبسه من أباطرة البيزنطيين)، ومشى إلى البهو الكبير في قصر الخضراء، فجلس على السرير (عادة أخرى تلقّنها من بيزنطية) وأمر بأن يؤذن للناس بالدخول على قدر منازلهم. ففاض المجلس بالوافدين، ومعاوية يردّ عليهم السلام ويتصفّح وجوههم حتى تبيّن وجهاً فرزدقيّاً سميناً عراه الامتقاع ساعة وقعت عليه عينه - وجهاً عرف في صاحبه واليَه على البادية ابن أمّ الحكم، فأومأ إليه إيماءةً خفيّة بأن يُدنيَ منه مقعده. فأطاع الوالي وقد زاد امتقاعه واشتدّ اضطرابه... ذلك أنه كان أدرى أهل المجلس جميعاً بأنّ الخليفة لم يحرص على تقريب مقعده منه تكريماً أو تعظيماً!

وانصرف ابن أبي سفيان إلى واليه بمشهد من الجميع، فقال له، وهو يبتسم تلك الابتسامة الداهية التي تعيد القلق طمأنينةً:

- إنك لم تبطئ في الحضور.

فأجابه ابن أمّ الحكم:

- كيف أبطئ وقد دعاني أمير المؤمنين؟

- وهل حضر معك أحد سواك؟

- أحضرت مَن فهمت مِن كتاب أمير المؤمنين أنّ حضوره واجب.
- أهلاً وسهلاً بك يا ابن أم الحكم. فكيف خلّفت البادية؟
- في خيرٍ ودعاءٍ لأمير المؤمنين.
- ولك أيضاً؟
- الدعاء لي مضمّنٌ في الدعاء لأمير المؤمنين.
- أرجو أن يصحّ ما تقول.

وأهل المجلس جميعاً يتلقّون بأسماعهم هذا الحديث المتوتّر، يجري في عباراتٍ مقتضبة، تنطوي على إلغازٍ خفيٍّ ولا تشفّ عن انشراح صدر الخليفة لواليه، أو عن ارتياح الوالي بين يدي الخليفة.

واشتد امتقاع ابن أمّ الحكم لدى العبارة الأخيرة، وقد أرسلها معاوية في لهجةٍ تدلّ على سخريةٍ مبطّنة. وقال الوالي وهو شبه مستفَزّ:

- عفو أمير المؤمنين، فما كنت أحسب أنّ شكوى يلفّقها أعرابي مهمَل تنال من مثلي وأنا الوالي الأمين، وتترك هذا الأثر في نفسك، وأنت أعلم بهؤلاء الأعراب الذين كلّفتني الولاية عليهم، وما أكثر ما ينسجون من تهمٍ في سبيل شيءٍ نسترضيهم به، وما أكثر ما يستعملهم أعداء الدولة من خوارج وشيعة وزبيريون للتشنيع على الولاة المخلصين والتشويش والمشاغبة في الرعيّة.

قال له معاوية معتصماً بهدوءٍ ظاهر:

- أما وقد حضرت يا ابن أمّ الحكم واستعجلت إثارة هذا الموضوع، في هذا المجلس، فعل من يعتقد البراءة في نفسه ولا يخشى ضعف دفاعه، فليكن ما شئت، ولنتجاوز الساعة عن هذا الأعرابي الذي استهنت شأنه وقضيته. إنّي أسألك عن هذه الضرائب التي لا تملّ

جبايتها وتبديدها في ولائم الزواج والملاذّ. وأسألك عن هذا السوط الذي لا تنفكّ تستعمله على الناس بيدك أو بأيدي جنودك كأنّك لم تسمع بقول عمر بن الخطّاب: "لا تضربوا العرب فتُخرجوهم أو تذلّوهم"، وكأنّك لم تسمع بقولي: "لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني". ثم أسألك عن جنودك، هل تدفع لهم أرزاقهم في مواقيتها؟ وأسألك عن أولئك النفر من البدو الذين بدأت تطيب لهم حياة الحرث في قرى حول آبار الماء وأحواضه يجعلون منها واحات في الصحراء، هل تخفّف عليهم من ضرائبك، وهل تكفيهم شرّ جنودك، وهل تقيهم من سطو من يطمعون في غزوهم؟

فبُهت ابن أمّ الحكم، ينظر في الأرض، تضايقه هذه العين الساهرة يتناول بها صاحبها كلّ أفق، وتُحرجه هذه اليد الطويلة الباع يمدّها صاحبها متجسّسةً بأصابعها الخفيّة كلّ غور. ولكن ابن أمّ الحكم أبى أن يخضع لهذا التجريد من سلاحه، فقال لمعاوية يعيد الكرّة:

– أعداء الدولة كثر، يا أمير المؤمنين، خوارج وشيعة وزبيريون. وهم لا همّ لهم إلاّ أن يشنّعوا على الولاة.

أجابه معاوية بذلك الصوت الذي لا يفقد رزانته وهدوءه مهما يشتدّ بصاحبه الانفعال:

– حجّة واهنة لا يرضاها معاوية، يا ابن أم الحكم...

إنّ الخوارج والشيعة والزبيريين ليتقولون الأشياء على الدولة. لكن ما شغلك أنت؟ أن تسلك السلوك الذي يعينهم فيما يتقولّون ويشنّعون، ثم تأتيني معتذراً بأنّ أعداء الدولة اخترعوا هذا وذاك

عليك؟ عوفيت، عوفيت! ما أسهل هذا الخط من الدفاع الذي أقمته لنفسك. تُطيل يدك على أموال الناس، وتتهالك على غصب النساء، وتعمد فوراً إلى سجنك وسوطك، ثم يكون كلُّ من كره منك عدوانك شيعياً أو خارجياً أو زبيرياً. وتتعنّت في التحامل عليه وقهره حتى لا يرى مذهباً له إلاّ أن يصير شيعياً أو خارجياً أو زبيرياً. ثم تقول فعل من أوتي القدرة على التنبؤ بالغيب: انظروا، كنتُ على حقّ! كلا، يا ابن أم الحكم، كلا! إنّ أعداءنا يجورون. ولكنّك إذا كنت جائراً في نفسك وسيرتك، فمحض جورهم لن يجعل منك عادلاً ولا فاضلاً، ولن يهيّئ لك عذراً، ولن يعفيك من تبعة. هل تفهم؟... والآن قم فجئني بمن أحضرت معك ممّن له علاقة بقضية صاحبك الأعرابي، فإنّي عزمت على النظر فيها بنفسي. وعد مسرعاً.

فنهض ابن أمّ الحكم متثاقلاً، برغم أنه كان لا يشتهي شيئاً كأن يفلت من هذا القفص الخانق. وخرج مرتبك الخطى، يتقاوى أمام أهل المجلس الذين أوشك أن يعثر بنظراتهم، ولم يبقَ منهم من لم يلمح بصيصاً على جبهة الوالي - بصيص قطراتٍ من عرقٍ كالتي تبعثها الحمّى في المريض.

ثم توجّه معاوية إلى أهل مجلسه فقال لهم:

- حضور ابن أمّ الحكم، والينا على البادية، أجدَّ لنا عملاً مفاجئاً لم يكن في الحسبان. فانصرفوا اليوم.

فما عَبَرت هنيهةٌ حتى تفرّق أهل المجلس، في صمتٍ ضاغط تتخلّله همسات وأرجل تنسحبُ وئيدةً على الأرض.

ودعا معاوية بغلامٍ من خاصّته أمره بأن يمضي إلى صاحب شرطته

فيقول له: إنّ أمير المؤمنين يطلب منك أن تأتيه فوراً بالأعرابي نصر من بني عذرة، وهو الأعرابي الذي أوصاك بأن تجعل عينك عليه في دمشق.

وتلت هنيهةٌ خلا فيها الداهية معاوية بن أبي سفيان إلى نفسه. وعاد يستعرض ما قاله الساعة لابن أم الحكم. ترى، ألم يغلظ له ويشتدّ في القسوة عليه؟

ولم تكن تفوت معاوية، على استباحته الوسائل والأساليب كلّها في سبيل توطيد دولته الجديدة، أن يرجع إلى نفسه في أحيانٍ كثيرة فيلومها أو يرضى عنها.

وتساءل الداهية في سره: أفلا أستحقّ أنا مثل هذا التعنيف الذي أخذت به ابن أم الحكم؟ وبعد، فماذا يفعل ابن أم الحكم؟ يتطاول على النساء، وإنّي أتطاول عليهن. ويبتزّ الضرائب، وإنّي أبتزّها. وينفق بذخاً، وإنّي أبذخ. ويبطئ في عطاء الجنود، وربما وقع لي مثل ذلك. ويضرب بالسوط ويسجن، وإنّي لا أستغني عن هذين، بل قد أدسّ السمّ لمن أرى ضرورةً في صرفه من الوجود...

وتمهّل الفكر لحظةً بمعاوية. ثم ما أسرع ما قال لنفسه: غير أنّ بيني وبين هذا الوالي فرقاً. فإنّي ما تغيب عن عيني، في كلِّ عملٍ آتيه، مصلحةَ هذه الدولة الجديدة التي شئتها جديدةً للرعيّة يختلفُ بها يومهم وغدهم عن أمسهم في ظلّ بداوةٍ جاهلةٍ قذرة، وظلِّ نيرٍ من الفرس والروم. ومع ذلك، فكيف أبني هذه الدولة الجديدة؟ أريدها مُلكاً وراثياً لابني وسلالتي. وأستغلّ جدّاً ما خلّف القديم من رذائل: أرشو بالمال، وأبذر التفرقة بالدسّ وإيقاظ نعرات الحسد، وأقتل بالسمّ.

وها أنّي أتساءل: هل يسوغ، بل هل يمكن تشييد ما قصدته من جديد، بهذه الوسائل والأساليب القديمة الملوّثة؟

لكنّ علامة الاستفهام الكبيرة التي رسمها هذا التساؤل الشجاع في رأس معاوية قد بقيت بلا جواب يشفي. إنها مأساة أصيلة في التاريخ، حتى يخلو التاريخ من المآسي.

وهنا عاد ابن أم الحكم فدخل على الداهية الأمويّ بصبيّة وانية تظهر في قسمات محيّاها أمائر انخطاف أبله، تتبعها عجوزٌ كأنَّ وجهها، لصفاقته وتجعّده وسواده، جلدٌ جُفّف في الشمس فتقلّص، ورَجُلان تنقلب أعينهما الدقيقة في رأسيهما كالجرذ الذي أطلّ من وكره يسرق شيئاً، وتضطرب شفاههما كأنّهما يردّدان كلاماً ملقّناً حفظاه عن ظهر قلب.

ثم أقبل على الأثر حاجبٌ يدفع بنصر إلى حضرة أمير المؤمنين. و لم يكن صعباً على صاحب الشرطة أن يعثر بهذا الأعرابي، فقد كاد يلازم الحارس على باب القصر ليله ونهاره يستطلعه هل جدّ من جديد.

وأوشك نصر، حين دخل بهو قصر الخضراء، أن لا يسلّم على معاوية، بل أوشك أن لا يراه جالساً على سريره يقلّب نظراته كأنّه يسبر أغواراً خفيّةً وفوق رأسه التاج الثقيل. إنّ وجهاً لاح لنصر فغطّى في عينيه على كلّ الوجوه. كان هو وجه سعاد، وقد نحف وشحب وارتسم فيه تحت العينين خطّان قوسيان بلون الكحل الكامد. فاصفرّ نصر اصفراراً اختطف ماء الحياة من محيّاه. وزادت سعاد على اصفرارها اصفراراً. وقد امّحى من وجهها ذلك الطابع، طابع البله المصطنع، وأضاءت عيناها بشرارةٍ، لكنّها انطفأت سريعاً ليحلّ محلّها

وجومٌ مقفرٌ عميق. ثم أدار نصر نظراته فتبيّن وجه الوالي ابن أم الحكم، ووجه امرأة عمه، ثم طالع وجهين غريبين لم يسبق له أن شاهدهما.

وبادره معاوية بالسؤال: يا أعرابي، أهذا هو الوالي ابن أمّ الحكم خصمك؟ أهذه هي الفتاة سعاد ابنة عمك؟ وهل هذه هي أمها؟

فردّ نصر بالإيجاب إيماءً برأسه. وأين يجد الكلمات وهي لاصقةٌ بحلقه؟

فتابع معاوية: وما دعواك؟

قال نصر وهو يجهد للكلام: حدّثتك الحديث، يا أمير المؤمنين، يوم المسجد. إن سعاد زوجتي وقد كرهت أمها أن تكون ابنتها زوجتي على فقري. ثم أقبل واليك ابن أم الحكم فحبسني بتهمةٍ ملفّقة، وجلدني، وسعى أن يغرّني بالمال ويزوجني. فلمّا أبيت عقد لنفسه على سعاد بمسعى من أمها، وأمسكني في سجنه، مع أنّ سعاداً زوجتي كما قلت.

فالتفت معاوية إلى ابن أم الحكم الذي استجمع جأشه ليبدو غير مبالٍ ولا مكترث، وقال له:

– ألا تدفع عن نفسك التهمة؟

أجاب ابن أم الحكم بجواب المطمئن الواثق ببراءته مما يُرمى به:

– مولاي، هذا الأعرابي كاذب. وحين جاءني كتابك يأمرني بما يأمرني به، أيقنت أنّ الأعرابي قد خلص إليك بعد فراره ليشكوني. لكن لم أهتم لعلمي بأنني لم أخالف أصلاً من الأصول. لقد طلّق هذا الأعرابي امرأته قبل أن عقدتُ عليها لنفسي، وعندي على ذلك شاهدان.

وأشار ابن أم الحكم إلى الرجلين الغريبين اللذين لم يعرفهما نصر

ساعة دخل. فما أسرع ما بدرت شفاه الرجلين معاً بما لُقّنا من كلام كأنّهما ببغاوان في قفصٍ واحد... قالا: نعم. طلّق هذا الأعرابي زوجته في حضورنا. وصدق مولانا الوالي، صدق.

فبُغت نصر وترب وجهه. وأطلقت سعاد صرخةً ممزّقة. وإذن، فصحيح أنّه رضي بطلاقها.

ولكنّ نصراً تغلّب فوراً على بغتته فقال:

– أقسم، يا أمير المؤمنين، أنني أجهل هذين الرجلين، فلم أرَ لهما وجهاً قبل اليوم. فمن هما؟

فسكتت "إحدى الببغاوين" لأنها لم تعرف ما تقول بعد الذي قالت. وانفردت الببغاء الأخرى تتكلّم من أنفٍ يخنخن:

– ويحك يا أعرابي، أما تستحي ربك؟ تكذّب مثلي رجلاً يقوم ليله للعبادة، وقد شهدت أنا وصاحبي طلاقك لامرأتك، ورأيتك تقبض مالاً من مولانا الوالي.

أُفعم صدر نصر غضباً، واحتقن محيّاه، وجحظت مقلتاه كمن عُقِد على عنقه حبل شديد، وصاح:

– أو يصعب على واليك، يا أمير المؤمنين، أن يرشو هذين الرجلين فيحوّل عبادتهما عن الله إلى المال ويشهدا له بالزور؟ لكنّ لي شاهد صدق غيرهما، هو جنديٌّ من جنود واليك كان يأتيني بالطعام وأنا سجين الخيمة. وهو الذي أنبأني أنّ سعاداً جُنّت لِما كرهت من زواج الوالي بها. وهو الذي قطع عنّي القيود ليلة أقام الوالي عرسه على امرأتي، فخرجت ساعياً إليك لتنصفني. اسم هذا الجندي عامر، صورته محفوظةٌ في لوح صدري. فأطلب أن يؤتى به ليشهد بما يعلم.

ولي أيضاً غير هذا الجندي عامر شاهدة صدق هي جارية واليك. سبيّةٌ روميّةٌ منكودة الحظ، أدخلها على مجلسنا ونحن معاً في خيمته، وأراد بالخمر والمال والتهديد أن يزوجنيها لأطلّق له امرأتي. فأطلب أن تُحمل إليك لتشهد لي بما تعرف.

وكان معاوية يسترقّ النظر إلى ابن أمّ الحكم، فيما نصر يتكلم، فلحظ كيف شحب وجه واليه عند ذكر الجندي عامر والجارية الروميّة، وقرأ في هذا الشحوب الحقيقة التي لا مجال معها لريب.

ولم يملك نصر أن تغرورق بالدموع عيناه اللتان همّتا بالوثوب من رأسه. وكانت دموعه أفصح لدى سعاد من كلّ ما يمكن أن يقوله لسانه. وزادتها اقتناعاً ثياب نصر القديمة، الثياب التي عرفته فيها وقد طال عليها القدم والإرهاق حتى باخت وتهلهلت.

فصاحت:

– كلا، كلا، يا أمير المؤمنين. لست أصدّق أنه طلّقني. لقد أنبأتني أمي وأنبأني الوالي أنه طلّقني لمالٍ دُفع إليه وتزوّج امرأةً غيري، ولست أشكّ في أنّهم أوهموه بدوره أنني رضيت طلاقه افتتاناً منّي بأن أصبح زوجة الوالي. تلك مكيدة سافلة، يا أمير المؤمنين. عزلوني عنه وعزلوه عني. وحاولوا تسميم نفسي بالكذب عليه. وحاولوا تسميم نفسه بالكذب عليّ. لئن يكن طلقني حقاً وقبض مالاً، وعدل عنّي إلى امرأة سواي، فعلامَ بقيت ثيابه القديمة هي إيّاها، وكيف لم تظهر عليه آثار نعمة؟ ثم لماذا لم يواجهني واليك وأمي بهذين الشاهدين قبل اليوم ليشهدا أنّ نصراً طلّقني أمامهما في غيبةٍ منّي، مع أنّي، يا أمير المؤمنين، ما زلت أصطنع الجنون، منذ أن فُصل بيني وبين نصر وتزوّجني واليك،

لكي لا يمسّني هذا الرجل الغاصب ولكي لا تهنأ أمي التاجرة بما شاءت أن تقبضه ثمناً لي. وعندي شاهد، وهو والدي الشيخ الضعيف، على أنّي لم أرغب يوماً في زواج واليك، بل بكيت بسواقي من دموع، فمر بوالدي يحضر.

وراح معاوية يتأمّل الصبية البدوية وهي تتفجّر في خطابها تفجّراً. أعجبته شفتاها وقد لاحتا كأنّهما قُليتا على اللهب، وسحرته مقلتاها بتوقّد صفائهما وطول ما يظلّلهما من أهداب، وأحسّ أن السُّهد والهمّ والاضطهاد قد قنّعت طلعتها بقناع من التعب والعياء لو زال لأشرق جمال هذه المرأة بما لا عهد به لإنسان. وحار كيف يستند إلى أسٍّ يفصل به في هذه الدعوى العجيبة. وما كان يعوزه لو شاء فوراً أن يستند إلى أسّ الضمير. لكنّ خاطرةً، بل رغبةٌ، مرّت بباله فقال يوجه الخطاب إلى سعاد ويبتسم:

– يا سعاد، إنّ والينا ابن أم الحكم تؤيّده أمك وهذان الرجلان، يزعم زعماً وأنت ونصر تزعمان زعماً آخر. ويطول بنا الأمر إذا رحنا نثبت أيّ الزعمين أصحّ وأصدق. فليس بالسهل استقدام والدك الشيخ ليشهد لك. وليس بالسهل استقدام هذا الجندي الذي سمّاه نصر وهذه الجارية التي ذكرها. فأنا معاوية ابن أبي سفيان أعتبرك الساعة امرأةً لا يقيّدها عقد زواج ما. فإذا مددت إليك يدي خاطباً فهل تقبلينني بعلاً؟ ولن تكوني أول أعرابية تزوّجتها وأنجبت. فهذه ميسون بنت بجدل الكلبية، وهذا ابنها يزيد قرّة عيني ووارثي من بعدي.

لكن قبل أن تجيب سعاد انبرى ابن أم الحكم فهتف:

– ذلك كان قصدي والله، يا أمير المؤمنين. إنني استكثرت هذه

البنيّة الحسناء على أعرابيٍّ زري، فعقدت عليها لنفسي عقداً صُورياً، وما أردت إلاّ أن أتخلّى لك عنها إذا أعجبتك.

فنظر إليه معاوية نظرةً فاهمةً، نافذةً، تعرّي دخيلة النفس، و لم يجبْه بكلمة على هذا النفاق. فالسكوت عن النفاق فيما بين الساسة قانون لياقة ولباقة في معظم الأحيان... ولأوّل مرة سرت خلجاتٌ من حياة في وجه أم سعاد. ولقد كان وجهها يرتدي قناع موتٍ لهذا المجرى الذي سلكته الأمور. غير أنّها حين سمعت الخليفة نفسه يقترح على ابنتها الزواج تهلّلت وآمنت بما تقوله الحكمة: لا تكرهوا شيئاً لعلّه خيرٌ لكم. وهتفت: معاذ الله أن تخالف ابنتي مشيئة أمير المؤمنين.

و لم يستطع نصر السكوت وقد أحسّ بقلبه كأنّه كرةٌ تتدحرج في هوّة، فقال:

لا تجعلنيَ والأمثال تضرب بي   كالمستجير من الرمضاء بالنار!

لكنّ معاوية لم يكن يهمّه إلاّ أن يسمع ما ستنطق به الفتاة. فلمّا رآها تعصر عينيها من الدمع قال مأخوذاً بالعجب:

– وما بك، يا بنيّة؟

أجابته:

– سيقتلني هذا الجمال الذي يُطمِع فيّ كلّ من رآني حتى أمير المؤمنين. لم يبقَ إلاّ الله عزّ جلاله ينقذني، لكنّ أحكامه مؤجّلة التنفيذ.

قال لها معاوية وهو يبتسم لبراعة العبارة:

– أفهم، إذن، أنّك لا تقبلينني بعلاً، برغم أنّ عندي لك القصور والحرير والجواهر والجاه.

– هو قلبي لا يقبل!

- ولِمَ؟

- لأنّ الحبّ عنده أقوى من قصورك وحريرك وجواهرك وجاهك.

- وترفضين ابن أم الحكم؟

- سبق أن رفضته... إنّ نصراً زوجي لا زوج لي إلاّه.

ودارت نحو نصر وأمسكت نفسها أن تطير إليه. ودار نصر نحوها وأمسك نفسه أن يطير إليها. ثم - وكأنّهما اقتُلعا من مكانيهما! - اندفعا فتلاقيا في عناقٍ صامت طويل.

ونظر معاوية إلى ابن أم الحَكم فقال له:

- لا يثقل عليك. رفضتني كما رفضتك... دهاءٌ شاء به معاوية أن لا يجرح واليه كما جرحه من قبل في نهاره. ووجد الفرصة مؤاتيةً ليُبلِّغ ابن أم الحكم، على الأثر، خبراً آخر على الهامش، فقال له: وأرى الأجدر بك بعد اليوم أن لا تعود إلى البادية، فيتحدّث الناس بأنّ أعرابيةً كرهتك زوجاً. فدار البهو بابن أم الحكم ورُنّح به ترنيحاً ومعاوية يبتسم له ابتسامته الماكرة.

ولم يلحظ أحد إلاّ بعد وقت أنّ أم سعاد تميد هي الأخرى في وقفتها وتشحب كمن يوشك أن يغمى عليه. فقد صعدت صعوداً حتى صاهرت الوالي، وكادت تصاهر أمير المؤمنين. يا لها من ذروةٍ شامخة ذاهبةٍ في عنان السماء! ثمّ ها هي تسقط عنها سقوطاً في فراغٍ سحيق. فُسخ زواج ابنتها بالوالي. وعُزل الوالي. وما صاهرت الخليفة. وقام بينها بين ابنتها ونصر جدارٌ من الكره إلى الأبد. لو بقي لها حتى زوجها الشيخ الضعيف! لكنّه مات قهراً وكتمت موته.

وأسرعت سعاد إلى أمها تسندها أن تنهار أرضاً، وقالت لمعاوية:

– سيدي، لو تأخذ هذه العجوز فتضعها في مطبخك.

فضحك معاوية حتى بدت نواجذه...

وأمر نصراً وسعاداً أن ينصرفا بعد أن أمر لهما بمالٍ لم يقبل منه نصر إلاّ ديناراً، واستبقى معاوية أم سعاد. أتراه وافق أن يجعلها في مطبخه؟ واستبقى ابنَ أم الحكم، وما ندري هل وجد له وظيفة أخرى في مطبخ الدولة؟

وساعة خرج نصر، ومعه سعاد، إلى عتبة القصر، لقي الحارس فدسّ في جيبه الدينار، ثم طلب جواده حيث ربطه على مرأى من عين الحارس، وحمل عليه سعاداً، ثم امتطاه ولكزه.

قال لها وفي صوته نبرة المازح:

– خفت أن أكون اشتريت هذا الجواد مما بذله لي ابن أم الحكم في سبيل طلاقك؟ لا تخافي. إنّ المظلوم يُرزق حليفاً. لقد وهبه لي رجلٌ يكره ابن أم الحكم، وهو الرجل الذي ترك لي الناقة والبعير قبل زواجنا، إن كنت تذكرين، ونحن ماضون إليه في مكانه، في واحةٍ أقامها في الصحراء، فنبشّره بفوزنا وعزل الوالي، ونعيش معه ومع رهطه في خدمة الزرع والضرع.

ومرّت دقائق صمت حتى عبر بهما الجواد تخوم المدينة ودخلا بين البساتين، فترجّل نصر وأنزل سعاداً على ذراع، وهو يقبض على عنان الجواد باليد الأخرى.

وكانت أوراق الحور الخضراء عند مجاري المياه تضطرب اضطراباً خفيفاً في تنهّدات النسيم، والمياه الجارية تزقزق زقزقةً رقيقة.

ثمّ ما أسرع ما غابت أصداء اضطراب الأوراق، وتوارى وجع زقزقات المياه، في هذه القبلة التي ألصقت شفتين مشتاقتين بشفتين مشتاقتين، وأغمضت عينين والهتين على عينين والهتين!

وتراخت يد نصر عن عنان الجواد الذي تقبض عليه. وسرح الجواد يرعى العشب ابتعاداً عمّا لا يعنيه...

خاتمة

أوغل نصر وسعاد في البادية لينصرفا إلى هذه الواحة التي ارتأى عروة صاحب نصر أن يستنبت خضرتها من حبّات الرمال ويجعلها مثالاً لإنهاض الحياة في الصحراء من طورٍ إلى طور.

لكن لم تلبث الواحة أن تلاشت كما يتلاشى سرابٌ ترقرق حيناً، فاضمحلّت معها أحلام عروة كما تضمحل أحلام من يسبقون التاريخ أو يبطئون عنه، وبقيت البداوة عنصر تأخرٍ وجمود في العرب إلى يوم يلغيها العلم والحرية.

كذلك انطوى كلُّ أثرٍ لنصر أو سعاد، فكأنّهما ضاعا في غمار البادية كما تضيع حبّتان من رمل تعصف بهما الريح. حتى حديث الناس بقصّة هذين الزوجين الحبيبين ما لبث حتى انقطع، لأنّ قصةً أخرى احتلّت المجالس وملأت الأفواه والأسماع وشغلت شرطة الدولة الأموية بتتبّع ناشريها ومذيعيها. تلك قصة يزيد بن معاوية وأرينب بنت إسحاق وزوجها عبد الله بن سلاّم.

وما عسى أن تبلغ من الأهمية قصة بدوي وبدوية، مثل نصر وسعاد، فتثبت أمام قصة يكون أبطالها يزيد بن الخليفة وعبد الله ابن

سلاّم القرشي والحسين ابن الإمام علي وأرينب بنت إسحاق...

وكانت ليلة من ليالي الكوفة - وهي يومئذٍ من زواهر مدن العراق - أوى فيها جماعةٌ إلى منزلٍ موصد الأبواب، فقعدوا في حلقة سمر حول أحد القُصّاص يصغون إلى صوته هامساً في آذانهم بهذه الحكاية همس محترسٍ كالذي يخشى أن تكون في الزوايا والجدران، أو على الكوى والمنافذ، آذانٌ تسمع وألسنةٌ تنقل.

كان يقول:

وبعد أن علم معاوية ابن أبي سفيان، الداهية الخبيث، أنّ علّة فتاه المدلّل وولي عهده يزيد إنما هي أرينب بنت إسحاق فهو يشتهيها لنفسه، كلّف معاوية من يأتيه بأخبارها، فقيل له إنّها عند عبد الله بن سلام تزوّجها منذ مدة. فكيف السبيل إذن وقد أصبحت أرينب في عصمة زوج، وزوجها عبد الله من أصحاب الوجاهة في قريش؟ أفسبيلٌ إلاّ أن يحمل عبد الله على طلاقها بحيلةٍ من حيل الدهاء التي يتقنها ابن أبي سفيان؟

وعلى هذا، انفرد خليفة بني أمية ببنته عاتكة يوماً يفاوضها في شأنٍ خطير. وبنته عاتكة هي التي يقول فيها الشاعر متغزّلاً:

وهي زهراء مثل لؤلؤة الغواص ميزت من جوهر مكنون!

ثم خاصرتها إلى القبّة الخضراء نمشي في مرمرٍ مسنون!

أمّا ذلك الشأن الخطير الذي فاوض فيه معاوية بنته فلا بدّ لنا من انتظاره كي نعرفه من مساق الأحداث.

كتب معاوية إلى عبد الله بن سِلاّم يولّيه ولاية العراق. وبعد أسابيع بعث يستقدمه إلى دمشق، ويستقدم معه الشيخين أبا هريرة وأبا

الدرداء، وهما من المقدّمين بين صحابة النبي.

حتى إذا حضروا جميعاً استقبلهم معاوية أحسن استقبال، وفاجأهم هذه المفاجأة العجيبة. قال:

– إنّي لم أولِّ هذا الفتى القرشيّ عبد الله بن سلاّم ولاية العراق إلاّ لأنّي سمعت من شرف أخلاقه وقوة ذكائه ما ارتاحت إليه نفسي. وعندي بنيّة بلغت مبلغ النساء وقد فكرت في زوج لها فلم أجد أصلح من عبد الله. وأرجو أن يكون في عملي سنّة تواضعٍ للخلفاء من بعدي. فكيف ترى يا أبا هريرة ويا أبا الدرداء وأنتما صاحبا رسول الله؟

فمكث أبو هريرة صامتاً. وأجاب أبو الدرداء:

– نعم ما تفعل، يا أمير المؤمنين، وأنت تريد التواضع.

فالتفت معاوية إلى عبد الله بن سلاّم وسأله:

– أراضٍ أنت؟

فأجاب عبد الله:

– بل تمنيت أن يكون لي ألف لسان فأشكر لأمير المؤمنين هذا الفضل العظيم.

– إذن، فلم يبق إلاّ أن أسألكما، أيها الشيخان الجليلان، أن تدخلا على عاتكة بنتي فتأخذا رأيها وتقنعاها بالقبول. وعبد الله ليس بمجهولٍ لديكما. فتحدّثا إليها عن شيمه النبيلة. وإنّكما لموفّقان إن شاء الله.

ونهض معاوية فقاد الرجلين بنفسه إلى عتبة المقصورة التي تقيم فيها بنته.

ولم تقل عاتكة بنت معاوية إلاّ خيراً حين ذكر لها أبو هريرة وأبو الدرداء ما جاءا من أجله. إلاّ أنّها صرّحت بما طبعت عليه نفسها من

الغيرة العنيفة، فهي لا تطيق أن يكون لزوجها امرأة سواها، فإن كان عبد الله متزوجاً فليس إلى الرضى به من سبيل.

فخرج الشيخان ومعاوية وعبد الله بانتظارهما في الديوان. فبادرهما الخليفة بقوله:

– أرى أنّكما لم تلبثا طويلاً.

فأجابه أبو الدرداء:

– لم نحتج إلى طول إقامة. كانت بنت أمير المؤمنين صريحةً. فهي تقبل عبد الله زوجاً لها شرط أن لا تكون له امرأة سواها. ونحن نعلم أنّ عبد الله متزوج. فقد أُقفل الباب إذن.

فرفع معاوية حاجبيه واتّسعت عيناه الحادتان وقال مصطنعاً الدهشة:

– أمتزوجٌ عبد الله؟

قال أبو الدرداء:

– نعم، وعنده امرأةٌ من خير النساء فضلاً وعقلاً وجمالاً.

– وكيف العمل إذن؟ أحسب أن لا سبيل إلى حلّ المشكلة. وصمت معاوية وتلبّد وجهه فِعْلَ ممثّلٍ متقن.

وأطرق عبد الله بن سلاّم مفكّراً: سيستاء معاوية فيعزله عن ولاية العراق بعد أيام. ثم كيف يحول شيء بينه وبين مصاهرة الخليفة؟ صحيح أنه يحبّ زوجه أرينب، لكن أمِنَ الحكمة أن يضحّي في سبيلها بكلّ هذا الجاه والسلطان؟ وما يقول عنه الناس؟ سيُكبر بعضهم عمله إذا وفى لأرينب. وهؤلاء هم رواة القصص العجيبة والشعراء. غير أنّ عامّة الناس سيعتقدونه غبيّاً من الأغبياء.

وما هي إلاّ رفة جفنٍ حتى حرّك عبد الله بن سلاّم شفتيه قائلاً:

– لا بأس، أطلّق زوجتي. وسيعوض الله أرينب من هو خيرٌ مني.

فبدت علائم الاضطراب على أبي الدرداء. وجمد وجه أبي هريرة. لكن لم يكن لهما أن يقولا شيئاً. أمّا معاوية فتظاهر باللامبالاة وقال لعبد الله:

– ذلك إليك. وأظنّ بنتي سيسرّها أن تعلم أنّك طلّقت زوجك في سبيلها.

وانفضّ المجلس.

وفيما كان عبد الله بن سلاّم يسعى في طريقه راجعاً إلى العراق، وهو يحلم أحلام الجاه والسلطان ويصرف عن ضميره عبئاً ثقيلاً جثم عليه، كان أبو هريرة وأبو الدرداء في مكانٍ ما من دمشق يتبادلان الحديث. قال أبو هريرة:

– أظن معاوية يبيت أمراً، يا أبا الدرداء، وقد دفع بهذا الفتى المسكين إلى طلاق زوجته.

– وإني لأظنّ ما تظن. غير أنّي لم أستطع أن أهتدي إلى قصد معاوية. هل قدّرت شيئاً؟

– كلا! فأنا في سردابٍ من الحيرة لا يلوح لي بصيصٌ من ضوء. ومع ذلك فقلبي يحذّرني. ولست أريد أن أشهد أمراً قد تكون فيه ريبةٌ فيقال إنّي شريك فيه. سأحيد بنفسي عن هذا الأمر.

– لئن اخترت الحياد اليوم فقد اخترته من قبل. أفما كنت في وقعة صفين تحضر مجلس عليّ ثم تنتقل إلى معاوية وقت الطعام، ثم تلجأ إلى التل إذا دار القتال وأنت تقول: عليٌّ أعلم، وطعام معاوية أدسم،

والقعود فوق التل أسلم؟ أما أنا فسأبقى يا أبا هريرة. ولا بدّ من أن ينجلي هذا القصد الذي يبيّته معاوية.

وعلى هذا افترق الشيخان.

ولبث معاوية في قصر الخضراء يبتسم في سرّه ابتسامة الظفر، إلاّ أنّها ممزوجة ببعض القلق. لكنّه تلقّى بعد أيام كتاباً من واليه على العراق ففضّه وقرأ ما فيه بلهفة. وإذا بعبد الله ينبئه أنه طلّق زوجته فور وصوله وأصبح على استعداد لعقد الزواج الجديد. هنا ابتسم معاوية ابتسامة الظفر المطمئنّة التي لا يشوبها أثرٌ من قلق.

وأرسل يستدعي أبا هريرة وأبا الدرداء إلى حضرته. فأقبل أبو الدرداء وحده معتذراً عن أبي هريرة.

قال له معاوية:

- يا أبا الدرداء، إنّ هذا الفتى عبد الله بن سلاّم قد طلّق زوجته وكتب إلينا كتاباً بالخبر. فادخل على بنتي فبلّغها أن لم يبقَ مانعٌ من قبولها إيّاه زوجاً.

فوقف أبو الدرداء واتّجه إلى مقصورة عاتكة بنت الخليفة وقصّ عليها النبأ. فما راعه إلاّ ضحك أطلقته الفتاة، أحسّ في غوره الشماتة والسخرية. فرقصت على صدره لحيته البيضاء وقال لها:

- أرى بنت أمير المؤمنين عظيمة السرور بهذا الفوز الذي أحرزته إذ قدرت أن تنتزع لنفسها رجلاً من امرأةٍ أخرى.

فتظاهرت بنت معاوية بالرزانة وقالت لأبي الدرداء:

- عفوك يا شيخي، لم تفهمني. أتظنني بهذا القدر من السذاجة؟ كيف أطمئنّ إلى رجلٍ كعبد الله سريع الطلاق؟ وكيف آمن أن يُشمِت

بي امرأةً أخرى كما أشمَتني اليوم بامرأته؟ لا، لا أرضى به زوجاً وأنا أعلم موقع المرأة التي طلّقها من قلبه، وأعلم أنه لم يُرِدْني إلاّ لحرصه على الولاية ومصاهرة الخلفاء.

فدار أبو الدرداء إلى باب المقصورة وخرج مصعوقاً لا يدري هل يجوز له أن يلوم هذه الفتاة التي جابهته أصدق مجابهة؟ وأسرع إلى حضرة الخليفة، فأفضى إليه بما كان، وعلائم الاضطراب باديةٌ عليه.

قال معاوية:

– إنّ هذه البنيّة شديدة العناد. ولست أعرف لها طبّاً أو علاجاً. وإذا أسفت لعدم زواجها بعبد الله، فلن أكرهها عليه إكراهاً. وعبد الله هو الذي اقترح طلاق زوجته فهو المسؤول عن عمله. لكنّي عظيم أعظم الحزن لما أصاب امرأته، وقد سمعتك تذكر أنّ أرينب من خير النساء فضلاً وعقلاً وجمالاً، وهذا ابني يزيد لا بدّ له من زوجة. فامضِ لساعتك فاخطبها له، يا أبا الدرداء، وابذل لها ما شئت من مهر. وسآمر فوراً بأن تُعدّ لك عدّة السفر إلى العراق.

فهزّ أبو الدرداء رأسه موافقاً. وكان في قلبه يقول: يا للداهية الخبيث!

وصل الصحابيّ الزاهد إلى العراق فسمع أول ما سمع أنّ الوالي عبد الله بن سلاّم طلّق امرأته أرينب بنت اسحاق وهو موعود بزواج عاتكة بنت الخليفة، إلاّ أنّه تلقّى كتاباً بالعزل!!

فما ملك أبو الدرداء أن تجتاحه موجة من غيظ. وما استطاع إلاّ أن يحسّ أنّ معاوية إنّما أراد أصلاً أن يغصب أرينب لابنه يزيد. فعقد النيّة على أن لا يجتمع يزيد بأرينب ما دامت فيه حياة!

ولكن كيف يصنع؟

وهنا خطر له أن يستعين بالحسين بن عليّ. والحسين معارض لمعاوية، منافس لابنه يزيد.

وأسرع الصحابيّ إلى الحسين، فاحتفل به السبط لمّا رآه أبهج احتفال. ثم تطرّق بهما الحديث إلى مكر معاوية بعبد الله بن سلاّم، وإلى ذكر خطبة أرينب ليزيد.

وحرص أبو الدرداء بما وصف من مكر معاوية وفضل أرينب وجمالها أن يستفزّ نخوة الحسين وغيرته. فقال له الحسين:

- اذكرني لها أيضاً وابذل لها من المهر مثل ما بذل ابن معاوية.

وعلى هذا انصرف أبو الدرداء فالتمس مكان أرينب ودخل عليها في منزلها. فما أبصرته حتى رأى الابتسامة تسرع إلى شفتيها. لكنه رأى الدموع تترقرق في عينيها. فقال لها:

- حقك، يا ابنتي، أن تدمعي وأن تبتسمي. فعبد الله بن سلاّم ممن يؤسف لفراقهم. لكن لك العزاء العظيم في خاطبين أوجَه منه وأكرم: الحسين بن علي ويزيد بن معاوية. فاختاري أيّهما شئت.

أجابته أرينب بصوتٍ ناحب:

- أي، أبا الدرداء، إنّك صاحب رسول الله. فاختر لي بينهما، ولك عليّ عهد الله أن لا أنزل إلاّ على رغبتك.

- يا ابنتي! ما زلت كأنني الساعة أرى رسول الله يقبّل الحسين في ثغره وهو صغير. فضعي شفتيك حيث وضعهما رسول الله، إلاّ إذا كنت تشتهين عرشاً، فيزيد ابن خليفة ووليّ عهد خليفة.

- قاتل الله العرش، يا أباد الدرداء. وهل سحق قلبي إلاّ العرش فباعد بيني وبين عبد الله!

- إذن، فأنت تختارين الحسين.

وعقد لها في اليوم نفسه على الحسين بن علي.

وطار الخبر إلى دمشق. فثارت ثائرة معاوية. وتفجّر غضبه على أبي الدرداء لعلمه أنّه هو الذي خذله. غير أنّ أبا الدرداء كان بعيداً. وكان معاوية أدهى من أن يعلن غضبه ويظهر الهزيمة على نفسه، فقال: امرأة نُكبت، فأردنا أن ندفع عنها النكبة، فسبقنا الحسين إلى هذه المكرمة، عافاه الله.

أما يزيد فأدرك أن لا دواء لهذا الجرح الذي حلّ به إلاّ النسيان الذي تسوقه الأيام في ركابها.

بقي عبد الله بن سلاّم. وكان جرحه عميقاً طريئاً يقطر دماً ويمضّ نفسه مضّاً شديد الوقع: جرح حبٍّ، وجرح كرامةٍ، وجرح خيبةٍ في ما حلم من أحلام الجاه والسلطان.

راح يندّد بمعاوية. ولغطت بخبره جميع الأوساط. غير أنّ ذلك لم يُجدِه كثيراً أو قليلاً، وعلى الأخصّ بعد أن أصبحت امرأته في عصمة رجلٍ آخر لا حقّ له عليه.

وشاءت المصادفة أن تأتي ساعةٌ يتذكّر فيها عبد الله أنّ له قِبَل أرينب وديعة من نفائس الجوهر استودعها إياها، ثم نسي أن يستردّها منها يوم الطلاق. أفكانت تلك مصادفة في الحقيقة أم تدبيراً من غوامض الأسرار؟

وانطلق عبد الله إلى الحسين ينبئه بالأمر، وهو موقنٌ أنّ أرينب ستتجاهل وديعته لما سلف من قبح معاملته لها. فأخذه الحسين وأدخله عليها قائلاً:

- تسلّم منها وديعتك كما سلّمتها إياها. يداً بيد.

وانسحب الحسين. فدخل عبد الله خجلاً مرتبك الخطى تدور به الأرض. وألقى السلام مطأطئاً برأسه، غارساً عينيه في موطئي قدميه. وذكر لها طِلبته والكلمات تلتصق بحلقه.

فطغت على وجه أرينب سحابةٌ من شحوب واختلجت شفتاها. لكنها لم تقل شيئاً... نهضت تبحث له عن الوديعة. وكانت تعرف مكانها بالضبط وتحرص عليها أعظم حرص، لأنّها ترى فيها الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن تجمعها بعبد الله مرة أخرى.

شدّ ما كانت أرينب في سرّها تتذكّر هذه الوديعة وتسائل نفسها: هل يعود من أجلها؟ وقلبها يقول لها: سيعود! لذلك شحب وجهها من عنف التأثّر واختلجت شفتاها أول ما بصرت به يدخل عليها ويسلّم ويلتمس وديعته. ومع هذا فقد استطاعت أن تُمسك على نفسها الوقار وتمشي إلى حيث حفظت الوديعة بقدم رزينة. ولا شكّ أنّها أحسّت بعينيه ترتقبانها. فلمّا مدّت يدها إلى مخبأ الوديعة اجتهدت أن لا تظهر عليها رعشة. وعادت تمشي نحوه ووجهها جامد كأنّه مِقدود من حجر. وناولته الصرّة على شكل ما صرّها يوم سلّمها إياها قبل الطلاق.

ركع عبد الله ووضع الصرّة أرضاً وفضّها بأصابع مرتجفة. ثم حفن حفنةً من الجواهر التي فيها، يكاد لا يعي ما يفعل. وقال لأرينب بصوت منسحق:

- خذي. خذي هذا جزاء ما سهرت عليها وحفظتها هذه المدة. ورفع إليها نظره. وكانت لا تزال واقفةً مقابله بوجهها الجامد،

فتعلّقت عيناه بعينيها اللتين صلّبتهما جفوةً وقسوةً فلاحتا كأنّهما من زجاج. قالت له بهدوء:

– منذ متى عهدتنا، يا ابن سلام، نكترث للجواهر؟

فأحسّ بكلّ لفظة من ألفاظها خنجراً يغوص متمهّلاً بين أضلاعه. واشتدّ اضطراب كفّيه كالأوراق في العاصفة، حتى تساقطت منهما الجواهر على الأرض.

ثم ما لبث أن سمع صوتها نغماً هادئاً جارحاً مقبلاً من بعيد:

– ولو أنّا رضينا، يا ابن سلام، لكان لنا ما شئنا من هذه الجواهر، بل لكان لنا يوماً عرشٌ منها فجلسنا عليه إلى جانب ملك، لكنّنا لا نرمي بقلبنا وقلب من أحبّنا على التراب لنطأهما بالقدم مشياً إلى جاهٍ أو سلطانٍ ذاتي.

ولم يكن عبد الله ليجهل ما تعني أرينب. كان يعلم أنها رفضت يزيداً وآثرت عليه الحسين. وكان أعرف الناس بأنّه قد طلّقها طمعاً بالجاه والسلطان لنفسه إذا تزوّج بنت معاوية... وخشي أن تتابع أرينب كلامها فتزيده على جراحه جراحاً، فقال لها بصوتٍ ناحب:

– كفى، كفى، رحماك!

وعاد فأغرق في الصمت، وغشيَ عينيه غشاءٌ من دموع. ومرّت بخاطره أطياف سعادةٍ لا يرجو أن تؤوب. إلاّ أنّه لم يلبث أن رأى خلال دموعه عجباً.

رأى عيني أرينب الزجاجيتين ترقّان هما أيضاً بالحنوّ والحنين، وتنديان بالدموع، ويرتسم فيهما ابتسام ذبيح. فلم يصدّق. خال نفسه يحلم حلماً راغداً في يقظةٍ تاعسة.

وهنا رجع فدخل عليهما الحسين كالمفاجئ... أبصرهما على تلك الحال التي تفتّ الكبد. فرحمها وصاح:

- ربّي اشهد أنّها طالق ثلاثاً. ربّي اشهد أنّي جعلتها في عصمتي و لم أمسسها.

ودارت الأرض بأرينب لتهوي بها على عبد الله. ووثب عبد الله ناهضاً من ركعته وخفض بصره إلى الأرض حيث كانت قدما امرأته تطآن جواهره المبعثرة...

انتهى حديث القصّاص في تلك الليلة من ليالي الكوفة في تلك الحلقة السريّة من حلقات السمر، وانقطع همسه المحترس. ولشدّ ما كان على حقٍّ في احتراسه، فإنّ شرطة الدولة لم يلبثوا طويلاً حتى تشمّموا ريحه وكشفوا عنه الستر فأخذوه فدفعوا به إلى السجن.

ومعاوية عهدئذ يدنو من خاتمة هذا المطاف الطويل الذي قطعه متقلّباً في الولاية والملك، متمرّساً بالسياسة وطرقها المستقيمة حيناً، الملتوية أحياناً.

فلمّا قرأ في ما رُفع إليه من حوادث العراق نبأ هذا القصّاص الذي يتلو حكاية الحسين وأرينب وعبد الله ويزيد، لم يملك في خلوة ديوانه أن يعود إلى نفسه، وأن تمرّ بخاطره ذكرياتٌ وعبرٌ وتأمّلات.

لقد عاشت في ذهنه حادثة أرينب وتوالت على ذاكرته أجزاؤها وتفاصيلها فتمتم يقول:

- تلك امرأةٌ أخرى علّمتنا أنّ الحب أقوى...

لكن تُرى علامَ قال امرأة أخرى؟ علامَ هذه "الأخرى" تبدر عفواً من شفتيه بوحيٍ من دخيلته اللاواعية؟

وتجلّت لخاطره صورةٌ كانت يد الأيام والليالي قد نسجت عليها حجاباً كثيفاً من نسيان. تلك صورة سعاد، صورة الفتاة الأعرابيّة التي كانت أول من علّمه تفوّق قدرة الحب.

ورنّت في أذنيه أصداءٌ من ذلك التوبيخ الصارم الذي تناول به يومئذٍ واليه على البادية ابن أم الحكم. و لم ينسَ أنّه حاول يومئذٍ أن يحاسب نفسه بما حاسب به ابن أم الحكم. فهل صدق حقاً في محاسبته نفسه؟ وهل هو حفظ فأحسن حفظ الدرس الذي ألقته عليه سعاد الأعرابيّة أنّ الحب أقوى؟ إن كان قد فعل مخلصاً، فلمَ تورّط إذن في حادثة أرينب؟ أفلم يحرّك عواطف دنيئة في عبد الله سلاّم ليجعل منه مطيّةً طيّعةً لتنفيذ مأربه؟ فكيف ساغ له هذا الاستغلال لما رسب في بعض قرارات النفوس من حساسات، وهو الساعي في تنظيم دولةٍ جديدة؟

"كلا، كلا! لقد أعوزك شيءٌ على عظمتك، يا ابن أبي سفيان"... قالها معاوية وهو ما برح ذاهباً مع التأمّلات، مجتهداً في خلوة ديوانه أن يتعرّى سرّاً ذلك التعرّي المعنوي أمام ذاته وحدها.

وأحسّ كأنّ سنّ قلم من فولاذ، أُحمي بالنار، راح يحفر في لوحة ذهنه سطراً على سطر من هذه الكلمات:

"إنّما أعوزك، يا ابن أبي سفيان، أن تدرك أنّ الحبّ أقوى، أقوى من الدهاء، أقوى من استغلال الخساسات الراسبة في بعض قرارات النفوس. فأمّا حبّك لفتاك يزيد، فهل صحّ في يوم أن تُسمّى الأنانية حبّاً؟"

"ولأنّك لم تدرك أنّ الحبّ أقوى – حتى هذا الحب الصغير بين

رجلٍ وامرأة – فقد كنت أعجز من أن تدرك ذلك الحبّ الآخر الكبير: حبّ الناس. أفما بعثت في يوم تقول لابن أبي طالب: "ألقاك بجموعٍ لا يفرّقون بين الناقة والجمل". ولو أنك أحببتهم لما رضيت لهم هذه الغفلة، ولما اعتززت بها صفةً فيهم، ولما أعجبك أن يكونوا كالمادة الغبيّة تستعملها في البناء، حتى بناء الجديد، إن أمكن أن يبنى جديدٌ ثابتٌ بمادةٍ غبية. ثم ألم يسألك سائلٌ يوماً عن أحبِّ الناس إليك، فأجبت: هو من يحببني أشدّ تحبيبٍ إلى الناس، وكان ينبغي لك أن تقول: هو من يعلّمني حبّ الناس على أصحّ الوجوه".

"فبحبّ الناس يتمّ معنى هذا العقل والحلم الذي تحلّيت به وقلت إنّه أفضل ما أُعطي المرء. وبحبّ الناس يعظم ما قلته: "إنّ ألذّ الأشياء عندي غيظٌ أتجرّعه"، وإلاّ فإنّك منافقٌ حين تتجرّع الغيظ وتحلم وتعقل لا لحبٍّ بل لانتهاز الفرصة الأوفق".

"العقل سما بك إلى فهم الضرورة التاريخية، فخدمتها. وبذلك خدمت الناس، لكن إلى الأمد الوجيز. فإنك حين عجزت أن تحبّ حقّاً لم يكن أمامك مفرٌّ من أن تنتهي إلى هذه المأساة الشعورية، بل الآفة: آفة الملل التي لا يزكو معها عمل، ولا تمتد منه في شرايين المستقبل تلك الروح المحمّسة الملهبة التي تكفل استمرار العمل وصيرورته الدائمة من عظيم إلى أعظم.

"الملل![1] يا لهذا السوس الناخر الذي يقوّض الدعائم.

"ولكن كان الحب أقوى، يا معاوية، لو أخذت به!"

---

١ – خطب معاوية قبل مرضه الأخير فقال: "قد طالت إمرتي عليكم حتى مللتكم ومللتموني، وتمنّيت فراقكم وتمنّيتم فراقي".

نصر وسعاد يرعيان القطيع كل يوم. تشتعل مشاعر الحب في قلبيهما، لكنَّ أم سعاد لا تريد لابنتها أن تتقرّب من هذا «الصعلوك المنتوف» الذي لا يملك سوى خيمة شعر مهلهلة.

ترضخ سعاد لقرار والدتها، لكنها تتواعد ونصر على الزواج حين يغتني. وتشاء الأقدار أن يمتلك نصر ناقة وبعيراً شاردين. عندها توافق الأم ويتزوّج الحبيبان. غير أنَّ الهزال يصيب الحيوانات فجأة، فتبدأ أم سعاد بحياكة المؤامرات لفصل ابنتها عن نصر...

قصّة الحب تلك تصل قصر الخليفة الأموي. بِمَ سيحكم معاوية بن أبي سفيان بعد أن أعجب بفصاحة سعاد وأدهشه جمالها؟

رئيف خوري (١٩١٣-١٩٦٧) مفكّر وأديب وناقد لبناني واسع النشاط، إنساني الطابع، يدعو إلى الالتزام الأدبي والإصلاح الاجتماعي. بعد تحصيل دراساته العليا انصرف إلى تعليم اللغه والأدب في مدارس عدّة في سوريا و فلسطين ولبنان حيث استقرّ أخيراً. دافع عن قضية فلسطين في الكلمة التي ألقاها، كممثّل للشباب العربي، في مؤتمر الشبيبة العالمي الثاني المنعقد في نيويورك عام ١٩٣٨. أسّس مع آخرين «عصبة مكافحة النازية والفاشستية» عام ١٩٤٠. عمل في الصحافة إلى جانب التدريس والتأليف والاشتراك في مؤتمرات عربية وعا... العاملين على إنجاح المؤتمر الأول للأدباء العرب الذي انعقد في ... في حوالى ٥٦ جريدة ومجلة، وألف أكثر من ٢٠ كتاباً، وله مخـ... بعد.

DAR AL SAQI
دار الساقي

ISBN 978-1-85516-828-2

